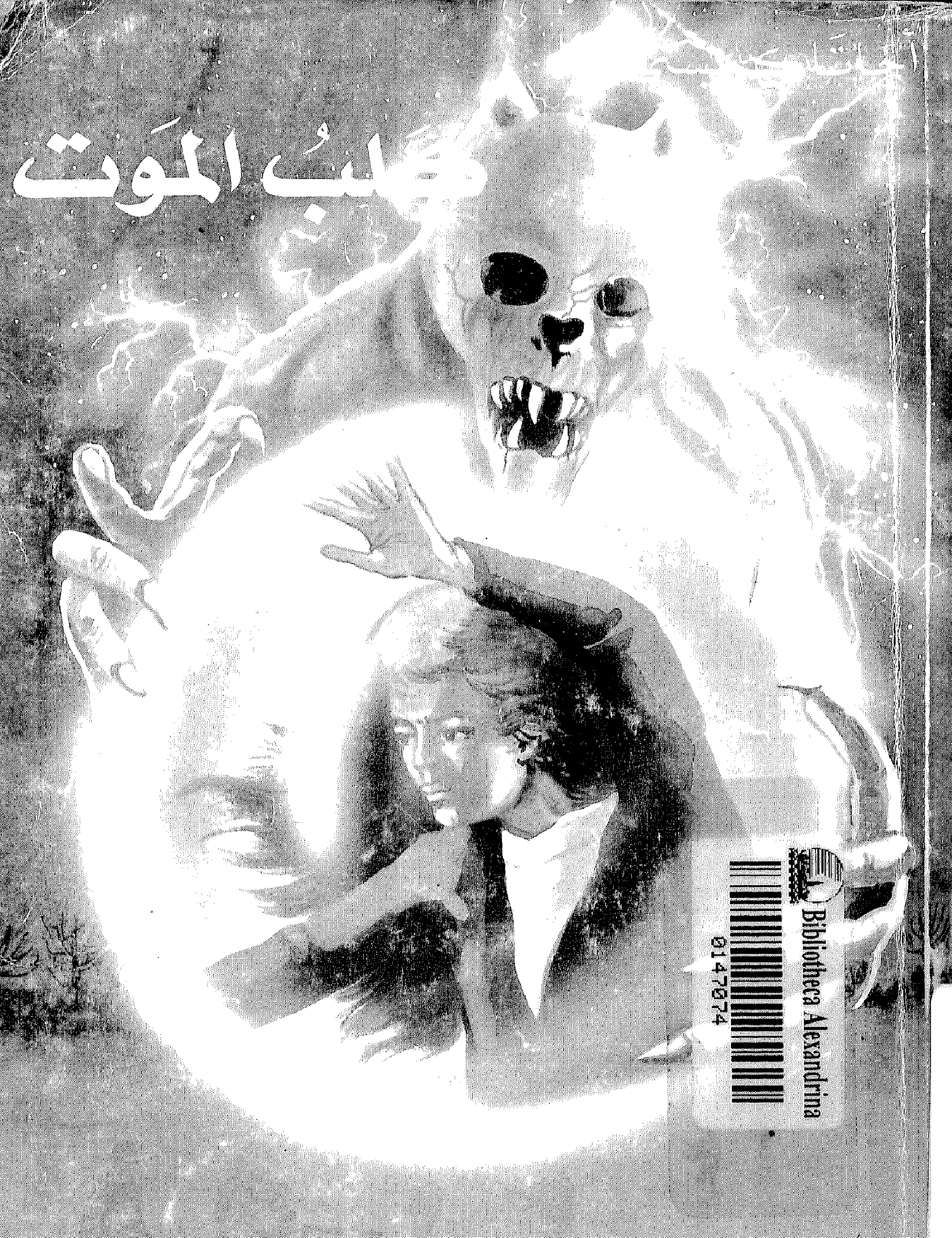
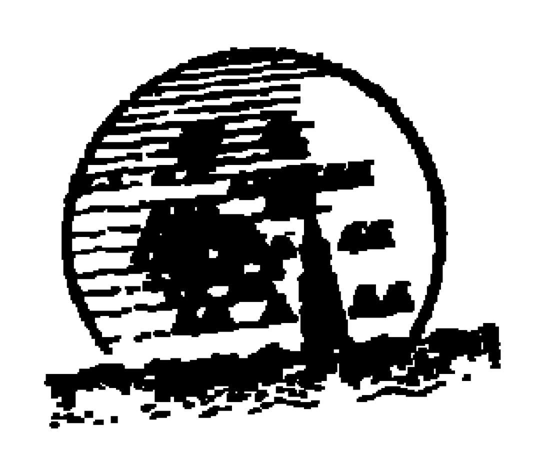


المكتبة الثقافية
بيروت

كلب الموت

أجاتا كريستي

كلب الموت



المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

كلب الموت

- ١ -

سمعت القصة لأول مرة من ويليام ب. ريان ، المراسل الصحفي الأمريكي ، كنا نتناول العشاء في لندن غداة عودته من نيويورك ، وتصادف أن قلت له إني ذاهب في الغد إلى قرية فولبريدج ، وتساءل ويليام قائلاً بدهشة :

– فولبريدج في كورنوول ؟

كانت قرية مغمورة ، وقد أثار دهشتي أن ويليام يعرفها .

وأجبته بقول :

– نعم ، هل تعرفها !

رد بالايجاب ، ثم سألني عما إذا كنت أعرف منزل ترين .

وتزايدت دهشتي ، وقلت له :

– أعرفه حق المعرفة وأنا ذاهب اليه في الواقع ، إنه منزل

أختي .

وقال ويليام :

– هذا أمر مثير للغاية .

وعندما سألته إيضاحاً قال :

– هـذا يقتضي أن أروي لك تجربة مررت بهـا في بداية فترة الحرب .

تنهدت بعمق ، دارت الواقعة التي أشير اليهـا سنة ١٩٢١ ، ولم يكن أحد يسعده أن يتذكر أحداث الحرب العالمية الأولى .

ولكن ويليام استرسل قائلا :

– كنت في بداية الحرب مراسلا لصحيفتي في بلجيكا ، وكنت دائب الحركة . توجد قرية سوف أسميها س ، ورغم أنهـا قرية صغيرة ، إلا أن بها ديراً كبيراً للراهبات ، وكانت تلك القرية تقع على الطريق الذي يتقدم نحوه الالمان ، ووصلت حشود الألمان .

سرت في بدني رجفة ..

ورفع ويليام يده وهو يطمئنني بقوله :

– ليست إحدى قصص الفظائع التي ارتكبها الالمان . اتجه جنود العدو نحو الدير ، وما كادوا يبلغون الدير حتى انفجر كل شيء .

وصحت قائلا بفزع :

– أوه !

- عملية غريبة أليس كذلك ، ظننت ان الألمان يقيمون احتفالا وأنهم يلهون بتفجيراتهم ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، وإني أسألك :

ما الذي تعرفه الراهبات عن القنابل قوية الأنفجار .

وقلت له وأنا أهز رأسي :

- إنه أمر غريب حقاً .

- كنت مهتماً بالاستماع إلى رأي الفلاحين في الحادث ، وكان رأيهم بالاجماع ان مـــا حدث معجزه عصرية ، وتحدث بعضهم عن راهبة قديسة يعتقدون أنها رأت ما حدث .

ووفقاً لروايتهم استعانت الراهبة بالصواعق لتفجر الألمـــان غير الأتقياء ، وقد انفجر المكان ليقضي على كل من كان قريباً من مكان الانفجار . معجزه ضخمة !

لم يكن لدي وقت لاستقصاء أسباب الحــادث ، ونشرت الرواية كما سمعتها وارسلتها لصحيفتي .

واستقبلها القراء في الولايات المتحده بترحيب شديد لأنهم كانوا على استعداد لتصديق الكرامات الدينية والقدرات الخارقة التي تتمتع بها بعض الراهبات ، ولكنني شعرت برغبة قوية في تقصي الحقيقة ، فــلم يكن في الموقع ما يستحق الاهتمام سوى جدارين كانا لا يزالان قائمين ، وعلى احدهما الآثار السوداء التي خلفها احتراق البارود، وهي تتمثل في شكل كلب ضخم ، وكان الفلاحون يرتعدون عند التطلع إلى ذلك الشكل ويطلقون عليــه اسم « كلب الموت » ، وكانوا يتجنبون المرور من تلك البقعة بعد هبوط الظلام .

سكت ويليام برهة ثم اردف يقول :

- الخرافات مسلية دائماً ، ومن ثم داخلتني الرغبة في مقابلة الراهبة

التي تمت على يديها المعجزة عندما سمعت انها نجت من الحادث ، وانها سافرت مع حفنة من اللاجئين الى بريطانيا ، وفكرت في تحمل مشقة السفر لاقتفاء أثرها عندما علمت ان المقام استقر بها في قرية فولبريدج في كورنوول .

كنت أريد أن أسمع القصة من فمها ، ولكن مشاغلي حالت دون تحقيق رغبتي ونسيت الأمر حتى سمعتك تشير إلى فولبريدج .

وقلت له :

– سوف أسأل اختي فلعلها سمعت عن الحادث ، ولعلك تعلم أن البلجيكيين قد عادوا إلى وطنهم منذ وقت طويل .

– إذا عرفت شيئاً من اختك يسعدني أن أعرفه .

فأجبته بحرارة :

– سأخبرك بالطبع .

- ٢ -

أثيرت القصة للمرة الثانية في اليوم التالي لوصولي إلى بيت ترين ، كنت أتناول الشاي مع أختي في الشرفة حين سألتها :

- كيتي .. هل تذكرين راهبة بين مجموعة اللاجئين البلجيكيين الذين يقيمون في بيتك ؟

- لعلك تقصد الأخت ماري الجيليك .

وسألتها بحذر :

- ربما تكون هي المقصودة ، حدثيني عنها .

- أوه .. إنهـــا أشد المخلوقات غرابة ، هل تعلم انها لا تزال موجودة هنا ؟

- ماذا تقولين .. تقيم في هذا المنزل ؟

- كلا . ولكنها موجودة في القرية ، هل تذكر الدكتور روز .

هززت رأسي نفياً وأنا اقول :

- أذكر طبيباً عجوزاً في حوالي الثالثة والثمانين من العمر .

- تعني الدكتور ليرد .. لقد مات .. أمـا الدكتور روز فقد وفد

إلى القرية منــذ بضع سنوات ، وهو شاب مفرط الذكاء ، متشبع بالأفكار الحديثة ، وقد أولى الأخت ماري الجيليك بالغ اهتمامه ، لأنها تعاني في بعض الأحيان من الهلوسة والغيبوبة ، وهي من ثم حالة جديرة بالدراسة الطبية ، وحيث أن الأخت المسكينة لم تكن تعرف مكانــاً تتجه اليه ، فقد تفضل الدكتور روز مشكوراً بتدبير مكان لاقامتها في القرية ، وأعتقد أنه يعد بحثاً طبياً عن حالتها .

سكتت برهة ثم أردفت تقول :

– ولكن ماذا تعرفه عنها .

– سمعت عنها قصة غريبة .

ورويت لها القصة التي سمعتها من ريان ، وأبدت كيتي اهتمامــاً كبيراً ، ثم قالت :

– إنها تبدو كذلك الطراز من الناس الذي يستطيع أن يلسفك ، لا أدري ما إذا كنت تفهم ما أقصده ..

وقلت لها وقد تزايد اهتمامي بالراهبة :

– اعتقد انني في شوق إلى مقابلة هذه الراهبة .

– افعل .. فأنا أحب ان اسمع رأيك فيها ، قــابل الدكتور روز أولاً ، لماذا لا تذهب اليه بعد تناول الشاي ..

وافقت على الاقتراح ..

ووجدت الدكتور روز في منزله ..

قدمت له نفسي ، ووجدته شاباً لطيفاً ، إلا أن شعوراً داخليــاً جعلني أنفر منه ، ولاحظت أنه بوغت عندمــا ذكرت اسم الأخت

الجبليك ، ولكن اهتمامه تزايد عندما رويت له قصة ريان .

وقال مفكراً :

– آه ! هذا الشيء الكثير .

رفع بصره إلى وجهي واسترسل قائلاً :

– هذه حـــالة جديرة بالدراسة ، من الواضح ان هذه الراهبة تعرضت إلى صدمة شديدة قبل مجيئها إلى هنا ، فقد كانت في حـــالة من التوتر العصبي الشديد ، وهي شخصية بالغة الغرابة ، وربما احببت أن تراها بنفسك .

رحبت بذلك ، وصحبني الطبيب إلى كوخ يقع في أطراف القرية ، وتقع معظم مساكن فولبريدج على الجانب الشرقي من نهر فول ، أمـــا الشاطىء الغربي فلا يصلح للبناء لكثرة التـــلال الصخرية ، رغم وجود بضعة أكواخ في ذلك الجانب ..

وكان كوخ الطبيب يقع على حافة صخرة في اقصى طرف من ذلك الجانب ، وكان الكوخ الذي نقصده يطل على البحر .

وقال الدكتور روز :

– هنـــا تقيم الممرضة المحلية ، وقد اتخذت الترتيبات اللازمة لكي تقيم الأخت مـــاري الجبليك معها حتى تكون تحت الاشراف الطبي المستمر .

وسألته قائلاً بفضول :

– هل هي في حالة طبيعية .

وأجابني الطبيب باسماً بقوله :

ـ تستطيع بعد دقيقة ان تحكم على ذلك بنفسك .

كانت الممرضة تستعد لركوب دراجتها لحظة وصولنا ، وبادرها الدكتور روز بقوله :

ـ مساء الخير ، كيف حال مريضتك اليوم ..

ـ جالسة كعادتها في هدوء مشبكة الذراعين ، شاردة اللب ، لا تجيبني عندما اخاطبها ، وربما كان السبب أنها لا تفهم قدراً كافياً من اللغة الانجليزية رغم طول الوقت الذي امضته معنا .

أومأ الطبيب برأسه في حين ركبت الممرضة دراجتها ، وفتح الطبيب باب الكوخ لنرى الأخت ماري راقدة على الأريكة بالقرب من النافذة ..

أدارت الراهبة رأسها تجاهنا ، وكان وجهها بالغ الشحوب ، وعيناها واسعتين بشكل ملفت النظر ، تشعان بنظرات تعكس المأساة التي تعيشها الراهبة .

وخاطبها الطبيب بالفرنسية قائلا :

ـ مساء الخير ايتها الأخت .

ـ مساء الخير يا سيدي الطبيب .

ـ هل تسمحين لي أن اقدم لك صديقي المستر انستروثر ..

انحنيت للراهبة التي افتر ثغرها عن ابتسامة واهنة . وقال الطبيب وهو يجلس بجوارها :

ـ وكيف حالك اليوم ؟

ـ إني اقرب ما اكون إلى حالتي المعتادة .

ترددت الراهبة برهبة قبل ان تسترسل في الحديث قائلة :

ـ لا شيء يبدو لي حقيقياً ، أهي أيام تلك التي تمر بي ام شهور ام اعوام .. لا اكاد ادري ، ولكن احـــلامي هي التي تبدو لي حقيقيـــة .

ـ أما زلت تحلمين كثيراً ؟

ـ دائماً .. دائمـــاً وأنت تعرف ، تبدو الأحلام حقيقية أكثر من الحياة .

ـ هل تحلمين بوطنك بلجيكا ؟

هزت الراهبة الشابة رأسها قائلة :

ـ كلا .. إنني أحلم ببلاد لم يكن لهـــا وجود قط ، ولكنك تعرف هذه القصة جيداً يا سيدي الطبيب . فقد رويتها لك مرات عديدة ..

توقفت عن الحديث برهة ثم أردفت تقول :

ـ ربما كان هذا السيد طبيباً هو الآخر ، لعله أحد أطباء المخ ؟

قال الدكتور روز بلهجة التأكيد :

ـ كلا . كلا !

لاحظت أثناء ابتسامة الطبيب أسنانه المدببة ، وخطر ببالي انـه أقرب شبهاً بالذئب .

واسترسل الطبيب في حديثه قائلاً :

ـ فكرت في أن الالتقـــاء بالمستر انسترثر يهمك لأنه يعرف

بلجيكا ، وقد سمع مؤخراً بعض الأخبار التي تتعلق بالدير الذي كنت تقيمين فيه .

التفت الطبيب نحوي ..

وقلت تعليقاً على حديثه :

– كل ما في الأمر إني كنت أتنـــاول العشاء منذ يومين مع أحد الأصدقاء ، وقد وصف لي ذلك الصديق أطلال جدران الدير .

– إذاً فقد لحق الدمار بالدير ؟

تفوهت بتلك الكلمات كأنها تخاطب نفسها ، ثم حدجتني بنظراتها وهي تقول :

– أخبرني يا سيدي .. هل أخبرك صديقك عن الكيفية التي دمر بها الدير ؟

– لقد نسف .. ويخشى الفلاحون المرور أمامه خلال ساعات الليل

– مم يخافون ؟

– توجد علامة سوداء فوق الحائط المدمر .

مالت الراهبة بجسمها قليلاً إلى الأمام وهي تقول :

– خبرني يا سيدي ، خبرني بسرعة ، ماذا تشبه هذه العلامة

– إنها تتخذ شكل كلب ضخم أسود ، يطلق عليه الفلاحون : « كلب الموت » .

– آه ! إذن فالأمر صحيح .. إنه حقيقي ، كل مـــا أتذكره صحيح . ليس مجرد كابوس .. لقد حدث بالفعل ، لقد حدث حقاً !

وقال لها الطبيب بلهفة وبصوت خافت :

– ما الذي حدث ايتها الأخت ؟

– لقد تذكرت ، هنالك على الدرج ، لقد تذكرت ، تذكرت الوسيلة إلى ذلك ، استخدمت الطاقة على النحو الذي اعتدناه .. وقفت على درج المذبح وأمرتهم ألا يتقدموا خطوة واحدة ، وطلبت منهم أن يعودوا في سلام ، ولكنهم لم يستمعوا اليّ ، استمروا في تقـــدمهم رغم تحذيري .. لهذا .

ومالت الراهبة بجسمها إلى الأمام بحركة غريبة قائلة :

– لهذا أطلقت عليهم كلب الموت .

ارتدت إلى الوراء لترقد على الأريكة وهي ترتجف ، وعيناهـــا مغلقتان ، ووقف الطبيب وقدم لها كوباً من الماء سكب عليه قطرتين من زجاجة صغيرة كان يضعها في جيبه ، وقدم لها الكوب قائلاً بلهجـة الأمر :

– اشربي هذا ..

أطاعت الراهبة بطريقة آلية ، بينما تتطلع عيناها إلى شيء غـير مرئي ، وقالت :

– ولكن الأمر كان حقيقياً .. كل شيء ، مدينة الدوائر ، شعب البللورة ، كل شيء .. كل شيء حقيقي .

وقال الطبيب :

– قد يبدو لك الأمر كذلك .

كان الطبيب يتحدث بصوت هامس ليشجعها على المضي في حديثها ، ثم أردف يقول :

– حدثيني عن المدينة .. مدينة الدوائر ، اليس هذا هو الاسم الذي أطلقته عليها ؟

أجابت الراهبة قائلة بطريقة آلية :

– نعم .. كانت توجد ثلاث دوائر .. الدائرة الأولى للصفوة المختارة ، والثانية للراهبات ، أما الدائرة الخارجية فللرهبان .

وسألها الطبيب :

– وماذا في الوسط ..

تنفست الراهبة بصعوبة وهي تقول بوجل :

– مقر البللورة !

تحسست الراهبة جبينهـا بيدها اليمنى ، بينما يتابع اصبعها شكلا معينـاً ..

وبدا وكأن اصبعها يتصلب ، ثم أغلقت عينيها بينما جسدها يرتجف ، واعتدلت فجأة كأنما تفيق من حلم فظيع وهي تقول باضطراب :

– ما الأمر .. ماذا كنت أقول ..

أجاب الطبيب قائلا :

– لا شيء .. انت متعبة وتحتاجين إلى قسط من الراحـة ، سوف نتركك الآن .

سألني الطبيب بعد خروجنا من الكوخ :

– ما هو رأيك الآن .

وأجبته ببطء قائلا :

ـ أعتقد إنها مشوشة العقل تماماً .

ـ اهذا هو رأيك ..

ـ حسناً .. من الغريب أنك تكاد تقتنع بأنها تقول الحقيقة حينما تستمع إلى حديثها ، ويخيل اليك أنها فعلت ما تزعم انهـــا فعلته .. اعني انها حققت معجزة خارقة ، وإيمانهـــا بأنها فعلت ذلك يبدو صادقاً ، هذا هو السبب .

قال الطبيب :

ـ دعنا ننظر إلى الموضوع من زاوية اخرى ، فلنفترض انها حققت معجزة .. وإنها تمكنت بالفعل من تدمير المبنى وبضع مئـــات من المخلوقات البشرية .

وقاطعته باسماً بقولي :

ـ بمجرد ممارستها للارادة ..

ـ لا اريد ان اصور الأمر على هذا النحو ، ولكنك ولا شك تتفق معي على انه بامكان اي شخص ان ينسف مجموعة من الأماكن بمجرد الضغط على زر يتحكم في مجموعة من الألغام .

ـ نعم .. ولكن هذا عمل ميكانيكي .

رد الطبيب :

ـ هـــذا صحيح ، ولكنه في جوهره عملية تحكم في قوى الطبيعة . وتعتبر العاصفة الرعدية اساساً نفس الشيء .

وسألته مستغرباً :

ـ ولكننا نحتاج إلى وسائل ميكانيكية لـكي نتحكم في العاصفـة

الرعدية .

ابتسم الدكتور روز ، ثم قال :

ـ توجد ماده يطلق عليها اسم .. حشيشة البقول ، وتوجد هذه المادة في الطبيعة في شكل نباتي ، ولكن الانسان يستطيع ان يركبها في المعمل كيائياً .

ـ حسناً .. وبعد .

ـ تتلخص وجهة نظري في انه توجد طريقتـــان للوصول إلى نفس النتيجة ، وأسلوبنا هو الأسلوب التركيبي ، وربما يكون هنالك أسلوب آخر ..

وعلى سبيل المثال ، فإن النتائج الغريبة التي يصل اليها فقراء الهنود لا يمكن تفسيرها بسهولة ، وربما لم تكن الأشياء التي نصفها بأنها خارقـة للطبيعة شاذة بأي حال ، فالانسان المتوحش يرى الضوء الكهربائي خارقاً للطبيعة ، وليس الشيء الخارق للطبيعة بأكثر من شيء طبيعي لم نتوصل بعد إلى فهم قوانينه .

وقلت له بانبهيار :

ـ ماذا تعني ؟

ـ إنني لا استبعد احتمال قدرة إنسان على تملك طاقة تدميرية هائلة يمكن أن يستخدمها في تحقيق أهدافه ، أمـا الوسيلة التي يتم بهـا تحقيق ذلك ، فقد تبدو لنـا خارقة للطبيعة بينما هي في الواقع ليست كذلك .

حدقت في وجهه بذهول ..

وضحك الطبيب ثم أردف يقول :

– هذا مجرد تصور ، والآن اخبرني : هل لاحظت الايماءة التي صدرت عن الراهبة وهي تتحدث عن مقر البللورة ؟

– نعم . وضعت يدها فوق جبينها .

قال الطبيب :

– تماماً .. ورسم اصبعها دائرة ، تماماً مثلما يفعل الكاثوليكي وهو يرسم علامة الصليب . سوف أذكر لك الآن شيئــاً مسلياً يا مستر أنستروثر .. لقد ترددت كلمة البللورة كثيراً على لسان مريضتي أثناء هلوستها ، وقد أجريت تجربة ، استعرت البللورة من أحد الأشخاص ووضعتها أمام عيني الراهبة فجأة لأرى رد الفعل .

فسألته مستفهماً :

– وكيف كان رد الفعل ؟

– إتصلب كل جسدها وظلت تحملق في الكرة البللورية وكأنهــا لا تصدق عينيها ، ثم ركعت في خشوع أمام البللورة وهي تتمتم بكلمات خافتة ، ثم أغمي عليها .

– وماذا كانت كلماتها ؟

رد الطبيب :

– كلمات شديدة الغرابة .. قالت : البللورة ! إذن فــالايمان لا يزال قائمــاً !

– شيء غريب .

– نصل إلى الأمر الغريب التالي .. حين عادت إلى صوابها كانت

قد نسيت الأمر برمته . أطلعتها على الكرة البلاورية وسألتها عما إذا كانت تعرف شيئاً عنها ، وقالت إنها تعتقد أنهـــا واحدة من تلك الكرات البلاورية التي يستخدمها العرافون لقراءة الغيب . سألتها عما إذا كانت قد رأت واحدة من قبل ، وكان ردها : لم أرها من قبـــل قط يا سيدي الطبيب . ولكنني رأيت نظرة حائرة في عينيها .

وسألتها : ماذا يقلقك أيتها الأخت ؟

وقالت : لأن الأمر بالغ الغرابة .. اني لم أرَ من قبل كرة بلاورية ومع هذا يبدو لي اني أعرفها خير المعرفة .. هنـــالك شيء ، لو انني استطعت ان اتذكر ..

كان من الواضح أنها تبذل جهداً ضخماً كي تتذكر ، ومن ثم فقـــد أمرتها بالكف عن المحاولة . كان ذلك منذ أسبوعين ، وسوف أجري بالغد تجربة اخرى .

– بالكرة البلاورية ؟

– نعم .. سأطلب منها ان تركز النظر عليها ، وأعتقد أن النتيجة ستكون ممتعة .

قلت له بفضول :

– ما هي النتيجة التي تتوقع الوصول اليها ؟

كنت أتحدث ببراءة ، وخيل الي أن وجه الطبيب احمر ، وأن لهجته تغيرت وهو يجيبني بطريقة رسمية قائلاً :

– حالة الأخت ماري انجيليك جديرة بالدراسة .

همست لنفسي قائلاً في دهشة : هل اهتمامك بها قاصر على النـــاحية

العلمية البحتة ؟

وقلت له بصوت مسموع :

ـ هل تسمح لي بحضور التجربة ؟

تردد قليلا قبل الاجابة ، وخيل اليّ انه لا يميـــل إلى وجودي ، ولكنه قال اخيراً :

ـ تستطيع حضور التجربة ولا شك .

ثم أضاف بعد برهة :

ـ أعتقد انك لن تبقى هنا طويلاً ؟

ـ حتى بعد غد ..

بدا عليه الارتياح ، ثم بدأ يتحدث عن بعض التجارب التي يجريها على الخنازير الغينية .

- ٣ -

التقيت بالطبيب في الموعد الذي حدده لي بعد ظهر اليوم التـالي ، وذهبنا سوياً إلى الأخت ماري انجيليك ، ولاحظت ان الطبيب متلهف في هذه المرة إلى محو آثار تصرفه معي في اليوم السابق حيث قـال لي ببشاشة :

– يجب الا تأخذ ما قلته لك على محمل الجد ، ولا احب ان تتصور اني من هواة علم البصريات .

– أحقاً ؟

ضحك الدكتور روز ، وحينما بلغنا الكوخ كانت المرضة بحاجة إلى استشارته في موضوع طبي ، وهكذا وجدت نفسي وحيـداً مع الأخت ماري ، ولاحظت انها تتفرسني مليـاً ، وكانت هي البادئة بالحديث حيث قالت :

– هذه الممرضة طيبة ، اخبرتني انك شقيق السيدة التي تملك البيت الكبير الذي اقمت فيه عند قدومي من بلجيكا .

وأجبتها قائلاً :

– نعم ..

ـ لقد كانت لطيفة معي ، إنها سيده طيبة .

التزمت الصمت برهة كأنما تستجمع افكارها ..

ثم اردفت تقول :

ـ والطبيب .. اليس هو الآخر رجلا طيباً ؟

قلت لها بارتباك :

ـ آه .. أعتقد ذلك .

ردت الراهبة :

ـ آه .. لقد كان بالغ الرقة معي .

ـ أنا واثق من ذلك .

نظرت اليّ بحدة ثم قالت :

ـ سيدي .. أنت تخاطبني الآن ، هل تعتقد اني مجنونة ؟

ـ أيتها الأخت .. مثل هذه الفكرة لم تخطر ببالي قط .

هزت برأسها ببطء وهي تقول :

ـ هل أنا مجنونة ؟ انني لا أدري .. الأشياء التي أتذكرها والأشياء التي أنساها .

تنهدت بعمق في اللحظة التي ظهر فيها الدكتور روز الذي حياهـا بمرح ، وشرح لها المطلوب منها أن تفعله قائلا :

ـ أنت تعرفين أن بعض الأشخاص يتميزون برؤية الأشياء في الكرة البللورية ، وأنا أعتقد أنك واحدة من هؤلاء الأشخاص .

وأجابته باكتئاب قائلة :

ـ كلا .. كلا .. لا أستطيع أن أفعـــل ذلك .. قراءة

المستقبـل إثم ..

عمد الطبيب إلى تغيير أسلوبه في اقناعها بلباقة قائلا :

– لا يجب على الانسان أن يستطلع الغيب . أنت محقة في هذا تماماً ، ولكن قراءة الماضي أمر مختلف .

تمتمت الراهبة :

– الماضي ؟

– نعم .. توجد في الماضي أشياء كثيرة بالغة الغرابة .. ومضات تظهر للانسان ، يمكن رؤيتها لحظة خاطفة ، ثم سرعان ما تختفي ، لا تحاولي البحث في الكرة عن أي شيء طالما أن ذلك غير مسموح لك .. كل ما أطلبه منك أن تمسكي الكرة بـين يديك .. هكذا . انظري خلالهـا بعمق ، نعم .. بعمق اكثر ، أنت تذكرين .. أنت تسمعين حديثي اليك وتستطيعين الاجابة على أسئلتي ، هل تسمعين مـا أقول لك ؟

أطاعت الأخت ماري أوامر الطبيب وحملت الكرة بـين يديهـا بتوقير شديد ، ثم بدأت تحدق فيها بعينين زائغتين ، ومال رأسها كأنها نائمـة ..

أخذ الطبيب الكرة منها برفق ووضعها على الطاولة ، ثم رفع طرف جفنها وجلس بجواري وقال لي :

– يجب أن ننتظر حتى تستيقظ ولن يتأخر ذلك .

كان الطبيب محقاً في ذلك ، لأن الراهبة استيقظت بعد خمس دقائق وقالت بصوت حالم :

- أين أنا ؟

- أنت هنا في البيت .. فقد نمت فترة قصيرة حلمت خلالها ، أليس كذلك ؟

أومأت برأسها قائلة :

- نعم .. حلمت .

- هل حلمت بالكرة البلورية ؟

- نعم .

- حدثينا عما رأيته في الحلم .

- سوف تفكر في اني مجنونة يا سيدي الطبيب ، لأن الكرة في الحلم كانت رمزاً مقدساً . فقد تخيلت لنفسي مسبحاً جديداً .. معلم البلورة مات نتيجة إيمانه ، وتمت مطاردة أتباعه والتنكيل بهم ، ومع هذا فقد استمر الايمان .

- استمر الايمان ؟

- نعم . لمده خمسة عشر الف قمر كامل .. أعني لمده خمسة عشر الف عام .

- كم تبلغ مده القمر التام ..

- ما يعادل ثلاثين قمراً عادياً . نعم .. كان ذلك في القمر التام رقم ١٥ الف بالطبع ، وكنت أنا راهبة البرج الخامس في مركز البلورة ، كان ذلك في الأيام الأولى من ظهور البرج السادس .

ضاق ما بين حاجبيها وبدا الارتياع على وجهها ..

ثم تمتمت قائلة :

– في القريب العاجل . في القريب العاجل ، خطأ .. آه .. نعم .. اني اتذكر ، البرج السادس ..

كادت تقفز واقفة ، ولكنها ارتدت إلى مقعدها وهي تتحسس جبينها بيدها قائلة بهمس :

– ولكن مـــا هذا الذي أقول .. إنني أهذي ، لم تحدث تلك الأشياء قط .

– والآن أرجوك ألا تبتئسي .

ولكنها كانت تنظر اليه في حيرة ممزوجة بالغضب وقالت :

– سيدي الطبيب ، اني لا أفهم لمـاذا أحلم هذه الأحلام ، هـذه الخيالات .. لم يكن عمري يتجاوز السادسة عشرة عندمـا ترهبت ، لم يسبق لي السفر إلى أي مكان ، ومع هذا فأنا أحلم بمدن وأشخاص غرباء وعادات غير مألوفة .. لماذا !

– ألم يسبق لك أيتها الأخت النوم تحت تأثير التنويم المغناطيسي أو الاستسلام لحالة من الغيبوبة ..

– لم أمر بتجربة التنويم المغناطيسي . أما بالنسبة للحالة الأخرى ، فعندما أصلي في الكنيسة أحس كأنما انسلخت روحي من جسدي وإني أموت لبضع ساعـات ، إنها إحدى حـالات البركة الالهية .. هكذا تقول الأم الموقرة

وقال الدكتور روز :

– أريد ان أجري تجربة أيتها الأخت ، فربما ساعدتك على التخلص من تلك الذكريات الأليمة .. سوف أطلب منك ان تركزي نظراتك مرة

أخرى على الكرة البللورية ، وسوف اذكر لك كلمة معينــة على أن تجيبي عليهـــا بكلمة أخري ، وسوف نستمر في ذلك إلى أن يحل بك التعب ..

ركزي أفكارك في الكرة البللورية وليس في الكلمات .

لاحظت للمرة الثـــانية التوقير الشديد الذي توليه الراهبة الشابة للكرة البللورية وهي تلمسها بأصابعها .

وخيم الصمت برهة ، ثم قال الطبيب : « كلب » .

وأجابت الأخت ماري على الفور قائلة « الموت » .

- ٤ -

لا أريد أن أعرض تسجيلا كاملا لما دار في الجلسة ، فقد نطق بكلمات كثيرة لا معنى لها ، وكرر كلمات بعينهـا أكثر من مرة ، وكان يحصل على نفس الاجابة في بعض المرات ، وعلى إجابة مختلفة في مرات أخرى .

جلست في تلك الليلة مع الطبيب في كوخه نناقش نتائج التجربة ، وأخرج الطبيب دفتر مذكراته ثم قال :

– هذه النتائج ممتعة للغاية وغريبة كل الغرابة .. فرداً على كلمـة « البرج السادس » كانت الاجابات المختلفة : الدمار – ارجوان – كلب – القوة ، ثم مرة ثانية الدمار وأخيراً القوة ..

لعلك لاحظت انني عكست الأمر بعد ذلك وحصلت على النتائج التالية .. كان الرد على « الدمار » بـ « كلب » ، وعلى « ارجوان » بـ « القوة » ، وعلى « الكلب » بـ « الموت » وهذه الاجابات متماسكة .

ولكن عند تكرار كلمة « الدمار » كان الرد « البحر » ، وكان الرد على « البرج الخامس » هو : أفكار – طائر – أزرق ثم في النهاية

تلك الكلمة الموحية : انفتاح عقل على عقل ! ولما كان الرد على « البرج الرابع » هو « أصفر » ، ثم « النور » ، والرد على « البرج الأول » هو الدم ، فإنني استنتج من ذلك أن لكل برج لوناً مميزاً وربما رمزاً معيناً .

فكان الرمز للبرج الأول هو الطــائر ، والرمز للبرج السادس هو الكلب .. على أية حال يخيل إليّ أن رمز البرج الخــامس يتمثل في « التليباثي » ، أو بمعنى آخر انفتاح عقل على عقل آخر .. ورمز البرج السادس هو بالتأكيد طاقة التدمير .

ـ وما معنى كلمة « بحر » ؟

ـ أعترف لك اني لا استطيع تفسيرها . عندما ذكرت لهــا نفس الكلمة بعد ذلك كانت إجابتها هي الرد الطبيعي : مركب ، وعلى كلمــة « البرج السابع » كان الرد : الحياة . وعندما كررت الكلمــة كانت الاجابة : الحب .. وكان الرد على البرج الثامن هو : لا شيء ! وأستخلص من ذلك أن مجموع الأبراج لا يزيد على سبعة .

وقاطعته بقولي :

ـ ولكن البرج السابع لم يكن له وجود طالما أن الدمار تم خلال البرج السادس ..

ـ آه .. أهذا هو رأيك ؟ ولكننا نأخذ هذه الملوثة مأخذ الجد وهي في الواقع مهمة من الناحية الطبية فحسب .

ـ لا شك أنها ستسترعي انتباه علماء الطبيعة .

ضاقت عينا الطبيب وهو يقول :

ـ يا سيدي العزيز ، ليست لدي نية نشر هذا البحث على الملأ .

ـ لماذا كل هذا الاهتمام إذاً ؟

ـ مجرد اهتمام شخصي .. سوف أسجـــل مذكرات حول هذه الحالة بالطبـع .

ـ اهكذا .. حسناً ، طاب مساؤك يا دكتور ، سأرحل في الغد .

بدا الارتياح على وجهه بوضوح .

وتابعت حديثي قائلاً :

ـ أتمنى لك حظاً طيباً في أبحاثك .

تريثت برهة قبل أن أقول له باسماً :

ـ أرجو ألا تطلق علي « كلب الموت » عندما نلتقي في المرة التالية !

كنت أصافحه في تلك اللحظة ، واحسست برجفة تسري في يده ، ولكنه سرعان ما استعاد هدوء اعصابه ، وانفرجت شفتاه وهو يبتسم لتكشف عن اسنانه المدببة ، ثم قال :

ـ بالنسبة لرجل يعشق القوة ، يا لها من طاقة ! أن تمسك بين قبضة يدك روح كل كائن حي !

- ٥ -

كان ذلك آخر اتصال مباشر لي بتلك القضيـة ، ووصلت إلى حوزتي بعـــد ذلك نوتة مذكرات الدكتور روز ، وسوف اجتزىء مقتطفات منها هنا ، ولست في حاجة إلى ان اقول أنهـا وصلتني بعد مضي فترة من الزمن .

٥ اغسطس : اكتشفت ان ما تعنيه الأخت م. أ بقولها ، « الصفوة المختارة » ، أولئك الذين أنجبوا الجنس .. لا شك انهم كانوا يتمتعون بمنزلة سامية ، وانهم كانوا يتميزون على رجال الدين .. قارن ذلك بالأيام الأولى للمسيحية .

٧ أغسطس : اقتنعت الأخت م. أ بأن تسمح لي بتنويمها تنويمـاً مغناطيسياً ، ونجحت في دفعها إلى النوم ، ولكنني لم استطع تحقيق اتصال بها .

٩ اغسطس : هل كانت تسبقنا حضارات تعتبر حضارتنا بدائيـة بالنسبة لها ! غريب لو كان الأمر كذلك ، وانا الانسان الوحيد الذي يعرف هذا السر .

١٢ اغسطس : تم تنويم الأخت م. أ مغناطيسياً بسهولة إلا أن

استجابتها كانت سلبية .. لا أستطيع تحليل ذلك .

١٣ اغسطس : ذكرت الأخت م أ اليوم انه في حالة غيبوبتها الروحية لا بد من اغلاق البوابة .. حتى لا تتاح الفرصة لآخر في السيطرة على البدن ، امر مثير ولكنه يبعث على الحيرة .

١٨ أغسطس : هكذا يكون البرج الأول مجرد .. (الكلمات ممحوة هنا) ، إذاً ما هو عـدد القرون التي ينبغي أن تنقضي حتى نصل إلى البرج السادس ، لكن إذا وجد طريق مختصر للوصول إلى القوة ..

٢٠ اغسطس : عملت ترتيباً كي تحضر الأخت م. أ. إلى هنـا مع الممرضة ، وأخبرتهـا أنه من الضروري أن تبقى المريضة تحت تأثير المخدر .. هل انا مجنون ؟ ام لعلي سوف اكون السوبرمان الذي يملك بين يديه القدرة على الاماتة ؟

(إلى هنا تنتهي المقتطفات من مذكرات الطبيب) .

- ٦ -

أعتقد أنه كان يوم ٢٩ أغسطس حين تلقيت الخطاب الذي أرسل باسمي على عنوان اختي ، وكان مكتوباً بخط اجنبي

فتحت المظروف بلهفة وقرأت الخطاب :

سيدي العزيز ..

لم أرك سوى مرتين ، ولكنني أحسست إنني أستطيع ان أوليك ثقتي ، وسواء كانت احلامي حقيقية او وهمية ، فقد ازدادت وضوحاً في الفترة الأخيرة ، وأود ان اخبرك يا سيدي ان كلب الموت ليس مجرد حلم .. في الأيام التي حدثتك عنها (سواء كانت حقيقية او غير حقيقية لا ادري) ، اذاع الشخص المكلف بحراسة البللورة سر البرج السادس الناس قبل الموعد ، وعندئذ دخل الشر قلوبهم ، واصبحت لديهم القدرة على ازهاق الأرواح كانوا يقتلون دون مراعاة العدالة ..

اعماهم الغضب وتملكتهم شهوة القوة ، وعندما شاهدنا نحن ذلك ، الأشخاص الذين ظلت قلوبهم نقية ، ادركنا أنه يتحتم علينا أن نوقف اتمام الدائره والوصول إلى عصر الخلود .. وصدرت التعليمات لحارس البللورة الجديد ان يتصرف ، لا بد ان يموت الحارس القديم .

وأطلق كلب الموت على البحر (مع حرصه على ألا تغلق الدائرة) وارتفع البحر على شكل قلب وابتلع الأرض كلها .. قبل ان اتذكر هذا ، وانا واقفة على درجات المذبح في بلجيكا .

أما الدكتور روز فهو واحد من الاخوة ، وهو يعرف البرج الأول وشكل البرج الثاني ، رغم أن معناه محجوب عن الجميع فيا عدا القلة من الصفوة المختارة ، كان يريد ان يعرف مني معلومات عن البرج السادس ، وقد قاومت رغبته بعض الوقت ، ولكنني ضعفت فليس من المصلحة يا سيدي ان يمتلك إنسان تلك القوة قبل الأوان المحدد .. يجب ان تنقضي بضعة قرون قبل ان يحل الوقت الذي يسمح فيه العالم بتملك القدرة على الامانة .. إني أتوسل اليك يا سيدي ، انت الذي تحب الطيبة والحقيقة ان تساعدني قبل ان يفوت الأوان .

اختك في المسيح

ماري الجبليك

سقط الخطاب من يدي على الأرض .. أو فيّ إيمان الراهبة ، واصبح الأمر واضحاً تمام الوضوح أمام عيني ، لقد أساء الدكتور روز استخدام حقه كطبيب ، ولا بد لي أن أسرع لكي أنقذها .

لاحظت فجأة بين مجموعة الخطابات التي وصلتني رسالة بخط كيتي ، ففضضت المظروف بسرعة وبدأت اقرأ :

« حدث شيء رهيب .. هل تذكر كوخ الدكتور روز الذي يقع على حافة الصخرة ؟ لقد اجتاحه جرف وأزاله من الوجود في الليلة الماضية ، ولقي الطبيب البائس والمرضة والأخت مـاري الجبليك

مصرعهم . اما منظر الحطام فهو بشع للغاية ، حيث تتكدس أكوام الحطام لتتخذ شكل قلب ضخم ».

كيتي

سقط الخطاب من يدي .. ربما كانت الحقائق الأخرى محض مصادفة ، مات شخص يدعى المستر روز فجأة . وقد اكتشف انه قريب بالغ الثراء للدكتور روز .. مات في نفس الليلة ، ويقال ان صاعقة اصابته ، وعلى قدر المعلومات المتاحة لم يسمع أحد عن وقوع صاعقة في المكان الذي لقي فيه المستر روز حتفه .

إلا ان شخصاً او شخصين في المنطقة المجاورة قررا أنهما سمعا قصفة واحدة للرعد ، وقد عثر في جسمه على حرق غريب الشكل نتيجة تعرضه للشحنة الكهربائية ، وبموجب الوصية التي تركها كان يوصي بكل ثروته للدكتور روز ابن اخيه .

والآن .. فلنفترض أن الدكتور روز نجح في الحصول من الأخت ماري الجليلة على سر البرج السادس ، فقد كنت أشعر على الدوام أنه رجل دنيء ، وأنه لم يكن يتورع عن قتل عمه ، لو انه عرف ان الثروة لن تؤول اليه .. إلا ان كلمة واحدة من كلمات الأخت ماري تدوي في اذني :

« مع حرصه على الا تغلق الدائرة .. ولكن الدكتور روز لم يكن حذراً من هذه الناحية ، وربما لم يكن واعياً بالخطوات التي يجب عليه اتخاذها ، او بمجرد الحاجة إلى اتخاذها ، لهذا فقد عادت القوة التي استخدمها لتكمل الدورة ! »

ولكن الأمر كله لا يعدو ان يكون خرافة ! ويمكن تعليل الأحداث بطريقة منطقية ..

كان الدكتور روز يعتقد ان ملوسة الأخت ماري الجيليك تثبت أنه بدوره مختل العقل ، ورغم هذا فإني احلم في بعض الأحيان بقساره تحت البحار ، حيث كان يعيش قوم وصلوا في فتره من الزمـان إلى حضارة ضخمة تتضاءل امامها حضارتنا الراهنة .

ام هل كانت الراهبة ملكة تذكر احـداث جرت في الماضي — ويقول البعض إن هذا ممكن ، وهل تعتبر مدينة الدوائر الموجودة في المستقبل وليس في الماضي ، عبثاً .. ان الأمر كله لا يعدو ان يكون مجرد هذيان .

الغجرية

- ١ -

كان ماكفرلين يلاحظ في مناسبات عديدة نفوراً غريبــاً من جانب صديقه ديكي كاربنتر الغجر ، ولم يكن يجد تعليـــلا مقبولاً لذلك ، ولكن الأسباب سرعان ما تكشفت له عندما فسخ صديقه خطوبته من استير لاوز ..

كان ماكفرلين خطيباً للشقيقة الصغرى راشيل منذ عام ، وكان يعرف كلتا الفتاتين منذ الطفولة ، ولم يكن على استعداد للاعــتراف باعجابه الشديد براشيل ذات الوجــه الطفولي والعينين اللتين تشع منهما البراءة .. لم تكن تداني استير جــالاً ، ولكنها كانت ولا شك أكثر عذوبة وصدقاً ، وازدادت عرى الصداقة توثقــاً حينما تمت خطبتهما للاختين .

والآن . فسخت الخطوبة بعد أسابيع قليلة .. كانت حياة ديكي تجري بسهولة منذ شبابه المبكر حين التحق بالبحرية التي يهواهــا منذ

صباه ، وكان من الأشخاص الذين يتمسكون بالعقل ولا يسمحون العاطفة بالتحكم في تصرفاتهم .

أخذ ماكفرلين يستمع وهو يدخن إلى صديقه الذي تتدفق الكلمات كالسيل من بين شفتيه ، وداخله احساس بأنه سوف يستمع إلى نبأ غير ساو ، ولكن الذي سمعه كان شيئاً مختلفاً ، لم يتطرق الحديث في البداية إلى استير لاوز ، وبدت القصة كأنها مجرد فزع صبياني ..

قال ديكي :

– تبدأ القصة بحلم عندما كنت طفلا .. لم يكن مجرد كابوس .. كانت غجرية .. وأنت تعرف كثرة ظهور الغجريات في الأحلام حتى في الأحلام المفرحة . كنت استمتع بتلك الأحلام إلى ابعد الحدود ، وكنت أحس أني لو رفعت بصري فسأراها .. واقفة كما كانت تقف دائماً تراقبني ، بعينيها الحزينتين ، كأنما تعلم شيئاً لا أفهمه .. لا أدري لماذا كنت ارتجف ، وكنت أستيقظ في كل مرة مفزوعاً ، وتقول لي المربية : هكذا عدت تحلم مرة أخرى يا سيد ديكي بالغجريات !

– هل كنت ترتاع عند رؤية الغجر الحقيقيين ؟

– لم أكن قد رأيت حتى ذلك الحين واحدة من الغجريات .

كنت أبحث عن كلبي الصغير الذي هرب من البيت . اجتزت باب الحديقة وخرجت إلى الغابة المجاورة للمنزل ، ووصلت إلى منطقة مكشوفة حيث يوجد جسر خشبي مقام فوق ترعة ، وكانت تقف أمام مدخل الجسر مباشرة غجرية تضع فوق رأسها منديلا أحمر ..

نفس الغجرية التي كنت أراها في الحلم ، كانت ترمقني بنفس النظرات كأنها تعلم شيئاً أجهله ، ثم قالت لي بمنتهى الهدوء وهي تومىء لي برأسها : لو انني كنت مكانك ما مررت بهذا الطريق ..

ارتعدت لكلماتها ومع هذا استأنفت سيري نحو الجسر ، كان الجسر متآكلا وهوى تحت ثقل جسدي وسقطت في الترعـــة وأشرفت على الغرق ، لم استطع أن أنسى ذلك الحادث قط ، وداخلني شعور بأن مرجع ذلك إلى الغجرية ، أخبرتك بذلك الحلم ليس لأن له صلة بما حدث بعد ذلك - أنا شخصياً اعتقد هذا - ولكنني رويته لك لأنه كان نقطة البدء في الأحداث التالية ..

ولعلك تدرك الآن ما أعنيه بالاحساس بالغجرية ، لهذا سأعود إلى تلك الليلة التي ذهبت فيها إلى منزل أسرة لاوز لأول مرة في أعقاب عودتي إلى انجلترا .. كانت تربط بين أسرتي وأسرة لاوز أواصر الصداقة ، ولم أكن قد شاهدت الفتاتين منذ كنت في السابعة ، ولكن آرثر الصغير كان صديقاً حميماً لي ، واعتادت أستير أن تراسلني بعد موت آرثر .. كانت تكتب لي خطابات لطيفة للغاية تدخل البهجة على قلبي ، وكنت في اشد اللهفة للالتقاء بها ، لهذا كان الذهاب إلى منزل لاوز أول ما خطر على بالي ..

لم تكن استير في المنزل لحظـة وصولي ، وقيل لي انهـا ستعود في المساء ، جلست أثنـاء العشاء بجوار راشيل ، وبينما كنت أستعرض المـائدة الطويلة بنظراتي أحسست باحساس غريب أشعرني بالضيق .. وعندئذ رأيتها .

- من التي رأيتها ؟

- مسز هاورث .. كانت تختلف تماماً عن الموجودين ، كانت تجلس بجوار لاوز العجوز ، وكانت تلف رقبتها بمنديل احمر من التل ، يبدو للناظر كأنه السنة اللهيب ، وقلت لراشيل : من تلك السيدة التي تضع حول رقبتها منديلا أحمر ؟

وقالت راشيل : تعني اليستير هاورث ، إنها تضع منديلا احمر ولكنها إنسانة بالغة الرقة .

ولقد كانت كذلك في الواقع .. كان شعرها أصفر رغم أنني كنت واثقاً من اني رأيته اسود في المرة الأولى .. كم يكون البصر خداعــاً في بعض الظروف ، قامت راشيل بواجب التعارف بعد العشاء ، وسرنا نحو الحديقة ، ودار الحديث بيننا عن تناسخ الأرواح .

- ولكن هذا الموضوع بعيد عن دائرة اهتماماتك يا ديكي !

- أعتقد ان هذا صحيح .. واذكر أنني أبـديت دهشتي لشعور الانسان عندما يلتقي بشخص لأول مرة كأنما يعرفه منذ زمن بعيد .. وقالت : تقصد العشاق ..

لاحظت رنة غريبة في طريقة حديثهـــا ، وذكرني ذلك بأمر لم استطع ان اتذكره على وجه التحديد ، ودار الحديث لحظة حتى ناداها لاوز العجوز من الداخل قائلا ان استير عادت وتريد رؤيتي ..

وضعت مسز هاورث يدها فوق ذراعي وقـــالت : ستذهب إلى الداخل ؟ قلت : نعم . وقالت : لو اني كنت مكانك ما دخلت الآن ! افزعتني كلماتها أشد الفزع .. لأنها كانت تتحدث بمنتهى الهدوء ، كأنها

تعلم شيئاً لا اعرفه .. لم تكن المسألة انها امرأة بالغة الجمال تريد ان تستبقيني معها في الحديقة !

كان صوتها بالغ الرقة فيه رنين الأسى الشديد ، كأنها تعلم ما سيحدث ، اعتقدت ان ما افكر فيه حماقة وادرت لها ظهري واسرعت إلى داخل المنزل ، وادركت في تلك اللحظة اني كنت خائفاً منها ، وأحسست بالراحة حين التقيت بأفراد أسرة لاوز ووجدتني وجهاً لوجه أمام استير .

ردد ديكي برهة ، ثم اردف يقول :

– لم يكن هناك أدنى شك انها سكنت قلبي منذ اللحظة الأولى .

ارتسمت في ذهن ماكفرلين صورة استير التي وصفها ديكي ذات مرة بأنها .. الجمال اليهودي الكامل .. بقامتها المديدة وفتنتها الطاغية وشعرها الأسود الغزير .. لم يندهش لأن ديكي استسلم دون شروط ..

ثم قال دكي :

– والذي حدث بعد ذلك اننا ارتبطنا بالخطوبة .

– في الحال ؟

– كلا . بعد حوالي الأسبوع ، ولم ينقض اسبوعان حتى اكتشفت انها لا تهتم بي ..

ضحك دكي ضحكة مريرة ..

ثم استرسل قائلاً :

– حدث ذلك في الليلة السابقة لرجوعي إلى سفينتي القديمة ..

كنت اسلك الغابة في طريق عودتي من القرية حين رأيتهـــا ، اعني مسز هاورث .. وقفزت فزعاً عند رؤيتها تضع فوق رأسها منديـلا أحمر .. وأنت تـذكر إني رويت لك حلمي ، ومن ثم تـدرك سبب فزعي .. سرنا معـاً نتحـدث بعض الوقت ، وحينما اقتربنـــا من المـنزل قـــالت لي : انت تتعجل الدخول .. لو أنني كنت مكانك مـــا تعجلت الدخول ..

أدركت في تلك اللحظة أن شيئاً كريهاً في انتظاري ، وبمجرد دخولي اخبرتني استير أنها اكتشفت إنها لا تحبني ..

وسأل ماكفراين :

– وماذا بشأن المسز هاورث ؟

رد دكي :

– لم ارها قط قبل هذه الليلة .

– الليـلة ؟

قال دكي :

– نعم .. رأيتها امام باب مستشفى الدكتور جوني ، كانوا يريدون فحص ساقي التي اصيبت في حادث اطلاق الطوربيـد ، والتي كنت أشكو منها خلال الفترة الأخيرة .. ونصحني الطبيب باجراء عمليـة قائلا إنها عملية بسيطة ، وبينما كنت اغادر المكان اصطدمت بممرضة ترتدي مريلة حمراء فوق زيها الرسمي وقالت لي : لو اني كنت مكانك ما وافقت على إجراء العملية !

ثم اكتشفت انها المسز هـاورث ، وانصرفت مسرعة قبل ان

استوقفها ، والتقيت بممرضة اخرى سألتها عنها ، ولكنها اخبرتني انه لا توجد في المستشفى ممرضة بهذا الاسم .. امر غريب .

سأله ماكفرلين :

– هل انت واثق من انها كانت المسز هاورث ؟

– نعم .. انت تعلم انها جميلة للغاية ، على اية حـال انا سعيد لأني حدثتك قبل ذلك عن قصة الغجرية ..

- ٢ -

توجه ماكفرلين نحو المنزل الذي يقع عند رأس التل ، ثم ضغط على زر الجرس ..

وحينما فتحت له خادمة الباب سأل :

— هل المسز هوارث بالمنزل ؟

— نعم يا سيدي ..

تركته الخادمة في غرفة فسيحة تطل على البراري ، وسمع صوتاً من إحدى حجرات الدور العلوي يغني :

كانت المرأة الغجرية
التي تقيم في البراري ..

انقطع الغناء مرة واحدة ، واحس ماكفرلين ان دقات قلبه تكاد تتوقف ، ثم فتح باب الغرفة .

وتسمر ماكفرلين في مكانه وهو يتأمل ذلك الجمال الفتان ، كان يتوقع ان يرى غجرية سمراء ، وتذكر وصف دكي لها . إنه جمال نادر ، قل ان يوجد له نظير .. تمالك هدوء اعصابه ، وتقدم

نحوها قائلاً :

- ربما لم نتعارف من قبل ، ورغم اني حصلت على عنوانك من لاوز ، إلا إني صديق لدكي كارينتر .

ظلت تتفحصه بنظراتها لمدة دقيقة او دقيقتين ، ثم قالت :

- كنت على وشك الخروج إلى البراري ، هل تحب ان تصحبني ؟

فتحت الشرفة ، ثم خطت إلى الخارج وماكفرلين يتبعها .

ولمح رجلاً بديناً تلوح عليه إمارات الغباء يدخن وهو جالس على احد المقاعد ، وقالت :

- زوجي ! سوف نذهب في نزهة قصيرة إلى البراري ، يا موريس .. وسوف يتناول المستر ماكفرلين العشاء معنا بعد عودتنا ، اليس كذلك !

وقال ماكفرلين :

- شكراً لك !

وبينما كان يسير خلفها في البراري ، همس لنفسه : لماذا ، لماذا بحق السماء تتزوج رجلاً كهذا !

شقت اليستير طريقها نحو بعض الصخور وهي تقول :

- سوف نجلس هناك .. وسوف تحدثني عما جئت لتقوله لي .

- هل تعرفين ؟

ردت مسز هوارث :

- اني اعلم دائماً عندما تكون الأخبار السيئة في الطريق ، اليست اخباراً سيئة عن دكي !

قال بأسف :

– اجريت له عملية جراحية بسيطة ، وتمت العملية بنجاح تام ، ولكن يبدو ان قلبه كان ضعيفاً لأنه توفي تحت تأثير المخدر .

وسمعها تتمتم قائلة :

– مرة اخرى ، الانتظار ، فترة طويلة ، فترة طويلة .

ثم رفعت رأسها قائلة له :

– نعم ، ماذا كنت تنوي أن تقول ؟

رد ماكفرين :

– مجرد سؤال .. لقد حذرته احداهن من اجراء هذه العملية ، ممرضة ، وكان يعتقد انها أنت ، هل كنت أنت حقاً ؟

هزت رأسها نفياً وهي تجيب :

– كلا .. لم اكن أنا ، ولكن ابنة عمي ممرضة ، ويمكن أن تبدو شبيهة بي في الضوء الخافت ، ربما كانت هي التي رآها ، ما أهمية ذلك على أي حال ؟

سكنت برهة ، ثم اتسعت عيناها فجأة وأخذت نفساً عميقاً .. ثم قالت :

– أوه .. كم هو مضحك ! إنك لا تفهم .

اعترت الحيرة ماكفرلين .

وكانت لا تزال تتفرس في وجهه قائلة :

– كنت أعتقد أنك تفهم ، كان ينبغي أن تفهم ، إنك تبدو كأنك

تمتلكها أنت ايضاً .

– أمتلك اي شيء ؟

ردت المسز هوارث :

– العطية والمنة سمها ما شئت .. أعتقد أنك تمتلكهـــا ، ركز نظراتك على ذلك التجويف في الصخور ، لا تفكر في أي شيء آخر ، آه . حسناً ، هل رأيت شيئاً .

– ربما كان مجرد تخيل ، لقد رأيت التجويف لبرهة وجيزة مملوءاً بالدم .

أومأت برأسها وهي تجيب :

– كنت أعرف أنك تمتلكهـا هذا هو المكان الذي يقدم فيه عبدة الشمس القرابين ، عرفت ذلك قبل أن يخبرني به أحد ، وتمر بي أوقات اعلم فيهـــا كيف كانت مشاعرهم حول ذلك ، كأني كنت حاضرة معهم . من الطبيعي أن تكون لدي هذه الموهبة ، فكثيرون من افراد عـائلتي لديهم القدرة على استطـلاع الغيب ، وكانت امي وسيطة روحية حين تزوجها أبي .. كان اسمها كريستين ، وكانت لها شهرة واسعة .

وسأل ماكفرلين :

– هل تعنين بالعطية القدرة على التنبؤ بأشياء قبل حدوثها ..

– نعم ، بالنسبة للماضي والمستقبل على السواء ، وعلى سبيل المثال رأيتـــك تتعجب وانت تسأل نفسك : لمـاذا تزوجت موريس .. آه ، نعم .. لقد فعلت ذلك ! السبب ببساطة انني كنت اعرف

أن شراً مستطيراً يتربص به ومن ثم أردت أن انقذه من ذلك الشر ، هذا هو طبع النساء .

مع العطية التي امتلكها ، فقد تكون لدي القـدرة على منع وقوع ذلك الشر ، هذا إذا كان باستطاعة الانسان ان يفعل .

لم يكن باستطـاعتي مساعدة دكي ، لأن دكي لم يستطع ان يفهم ، كان خائفاً وكان صغيراً للغاية .

ـ كان في الثانية والعشرين من عمره .

ـ وأنا في الثلاثين ، ولكنني لم أقصد هذا . توجد طرق عديدة لتقسيم الانسان بالطول والعرض والعمق .. ولكن أسوأ الطرق تقسيمة بالزمن ..

أخلدت إلى الصمت فترة طويلة قبـــل ان تسمع قرع الجونج من داخل المنزل إيذاناً بحلول موعد الغداء .

وأثناء تناول الطعام اخذ ماكفرلين يراقب هوارث خفية ، وادرك أنه يحب زوجته حباً جنونياً ، ولاحظ ماكفرلين أيضاً رقة استجابتها للزوج ، واستأذن بعد تناول الغداء قائلاً :

ـ سأبقى في الخان لمدة يوم أو يومين ، هل استطيع ان آتي للزيارة في الغد مره اخرى !

ـ بالطبع ، ولكن !

سأل ماكفرلين :

ـ ولكن ماذا !

مرت بيدها بسرعة فوق عينيها وهي تقول :

ـ لا أدري ، كنت الخيل إننا لن نلتقي مرة أخرى ، هـذا كل ما في الأمر ، في رعاية الله .

سار ماكفرلين في الطريق على مهل ، واحس بالرغم منه بيد باردة تضغط بشدة على قلبه ..

ومرت سيارة مسرعة بجانبه ، وارتمى على السور في لحظة خاطفة ليتفادى السيارة ..

وعلت وجهه صفرة الموت .

- ٣ -

همس ماكفرلين لنفسه وهو يستيقظ صباح اليوم التالي :

– يا إلهي ! إن أعصابي مضطربة للغاية ..

واستعرض في ذهنه الأحداث التي وقعت له بعد ظهر اليوم السابق ، حادث السياره المسرعة ، وتفكيره في اختصار الطريق أثناء عبوره منطقة البراري ، ثم الضباب المفاجيء الذي هبط ونسيانه وجود مستنقع خطر في الطريق .. ثم غطاء فوهة مدخنة الخان الذي سقط فجأة ، ورائحة الاحتراق التي شمها خلال الليل التي اكتشف أنها منبعثة من السجادة المشتعلة !

كل تلك الأحداث لا قيمة لها ! لا شيء فيها على الاطلاق ، ولكن كلماتها ، ولهجة الثقة التي كانت تتحدث بها مما يؤكد له أنها كانت تعرف .

أزاح الغطاء بنشاط مفاجيء .. سوف يكون أول شيء يفعله هذا الصباح ان يذهب لمقابلتها ، فربما تسبب ذلك في التخلص من اللعنة .. هذا إذا قدر له أن يصل سالماً .. يا إلهي ، كم كان انساناً احمق !

تناول افطاراً خفيفاً ، وفي العاشرة كان يسير في الطريق ..

وفي منتصف الحادية عشرة كان يضغط بيده على جرس الباب ، وقال للخادمة :

- هل المسز هاورث بالداخل ..

وقالت الخادمة التي يفيض وجهها بالأسى :

- أوه ! أنت لم تسمع بالنبأ إذاً يا سيدي ..

- اي نبأ ؟

- المس اليستير .. الحمل الوديع .. كان سبب وفاتها الدواء المقوي الذي تتناوله كل ليلة .. زوجها التعس يكاد يجن ، فقد كان هو الذي اعطاها الزجاجة الخاطئة ، أرسلوا الطبيب ولكنه وصل بعد فوات الأوان ، طافت برأسه في الحال كلماتها : كنت اعلم دائماً ان شراً مستطيراً يحلق فوق رأسه .. ومن ثم اردت ان انقذه من ذلك الشر ، هذا إذا كان باستطاعة الانسان ان يمنع القضاء .

آه . ولكن أحداً لا يستطيع ان يخدع القدر ، فقد دمرت موهبة استطلاع الغيب من حيث كانت تريد المساعدة ..

واسترسلت الخادمة تقول :

- حملي الوديع المسكينة ! كانت شديدة الرقة ، وكان يسوؤها أن ترى انساناً يواجه المتاعب ، لم تكن تتحمل آلام الآخرين .

ترددت الخادمة برهة ، ثم اردفت تقول :

- هل تحب ان تصعد لتراها يا سيدي ! اعتقد انك مما كانت تقوله عنك ، صديق كان يعرفها منذ زمن طويل ، منذ زمن بعيد الغاية ،

هذا ما كانت تقوله .

تبع ماكفرلين الخادمة العجوز وهي تصعد الدرج إلى غرفة تقع فوق غرفة الاستقبال التي سمع منها صوت اليستير وهي تغني من قبل ، وكان بالغرفة زجاج للنوافذ تملوه بعض البقع بحيث يلقي ضوءاً أحمر فوق السرير ، حيث ترقد غجرية تضع فوق رأسها منديلا احمر .. تخريف !

لا شك انه كان يتخيل مـا لا وجود له ، والقى عليها نظرة طويلة اخيرة .

- ٤ -

- هناك سيدة ترغب في مقابلتك يا سيدي .

فتطلع ماكفرلين إلى صاحبة المنزل وهو يقول لها باضطراب :

- عذراً يا مسز روز ، كنت أتخيل رؤية أشباح .

- أحقاً يا سيدي ؟ عادة ما يشاهد الانسان في البراري أشياء غريبة بعد هبوط الظلام .. هناك الشابة البيضاء ، والحداد الشيطان ، والبحار والغجرية .

- ماذا تقولين ؟ البحار والغجرية ..

- هكذا سمعتهم يقولون ، كانت قصة مشهورة في أيام طفولتي .

- لا يدهشني أن تسمعي المزيد من تلك القصص الآن .

- يا الهي ! يا لها من أشياء تلك التي تتحدث عنها .. هل تدور القصة حول تلك الشابة ؟

- أية شابة ؟

- الشابة التي ترغب في مقابلتك ، إنها في غرفة الجلوس ، المس لاوز . هذا هو الاسم الذي ذكرته .

- أوه ..

راشيل . أحس بشعور غريب مختلف عن كل المشاعر التي كان يحس بها منذ قليل ، لقد كان يحوم في عالم آخر ونسي كل شيء عن راشيل ، لأن راشيل تنتمي إلى هذا العالم وحده .

فتح باب غرفة الجلوس لتطالعه راشيل بعينيها اللتين تشع منهما البراءة والاخلاص ، وفجأة كالرجل الذي يفيق من حلم ، أحس بموجة عاصفة من الفرحة تغمره .. إنه حي ، إنه على قيد الحياة .

وهمس بصوت خافت :

— راشيل !

ورفع ذقنها ليطبع على شفتيها قبلة حارة .

المصباح

كان المنزل عتيقاً تفوح منه رائحة الماضي ، وكانت تسري في غرفه وردهاته وقاعاته برودة ، وكانت منازل المنطقة كلها تمت إلى الماضي ، ولكن رقم ١٩ كان اكثرها قدماً وبرودة .

لو أن بيتاً كهذا كان يوجد في اي مدينة أخرى لقيـل إنه مسكون ، إلا ان المنزل رقم ١٩ لم يطلق عليه قط أنه مسكون ، ورغم هذا فقد ظلت تعلق عليه ، عاماً بعد عام ، لافتة تقول ان المنزل معروض للايجار او البيع .

نظرت المسز لانكستر إلى المنزل بارتياح وهي تسير مع السمسار الثرثار ، الذي كانت على وجهه إمارات الفرحة الطاغية ، لأن المنزل قدر له أخيراً أن يشطب من دفاتره .

وقالت مسز لانكستر :

ـ منذ متى ظل المنزل خالياً ؟

اضطرب المستر راديش قليلاً ، ثم قال متلعثماً :

– منذ .. منذ بعض الوقت .

وقالت المسز لانكستر بجفاف :

– هذا ما تخيلته .

كانت الصالة ذات الضوء الخافت باردة ، ولو أن سيدة أخرى تجولت فيها لسرت البرودة في جسدهـــا . ولكن هذه السيدة كانت عملية للغاية ، كانت طويلة ذات شعر بني يميل إلى السواد ، بدأت الشعيرات الرمادية تتسلل اليه ، وعيناها زرقاوان هادئتان .

واستمرت المسز لانكستر في جولتها لتشاهد الغرف المقامة في السطح ، وحين انتهت من جولتها عادت إلى إحدى الغرف التي تطل على الميدان وواجهت السمسار بعزم قائلة :

– ما هي قصة هذا المنزل ؟

فوجىء المستر راديش بالسؤال ، وقال بعد برهة :

– كل البيوت تكون كئيبة بعض الشيء عندما تكون عـــارية من الأثاث .

وقالت المسز لانكستر :

– عجباً .. إيجار المنزل منخفض للغـاية ، إيجار اسمي ، ولا بد أن يكون لذلك سبب ، هل المنزل مسكون ؟

ارتعد المستر راديش ولم يقل شيئاً ، ورمقته المسز لانكستر بنظرة حادة ، ثم قالت :

– مسألة الأشباح عبث على اي حال ، فأنا لا أؤمن بالأشباح أو بأشياء

من هذا القبيل ، ولن يكون ذلك سبباً لتركي المنزل ، ولكن الخدم لسوء الحظ يؤمنون بهذه الخرافات ويرتعدون خوفاً ، لهذا أطلب منك أن تخبرني بالقصة الحقيقية ، ما هو الشيء المفروض أنه ينتاب هذا المسكن ؟

وقال السمسار متلعثماً :

ـ أنا في الواقع لا أعرف .

ردت المسز لانكستار بهدوء :

ـ انا واثقة من انك تعلم ، ولا أستطيع استئجار المنزل دون ان اعرف الحقيقة ، ماذا كان السبب .. جريمة قتل ؟

وصاح المستر رادريش بانفعال :

ـ أوه .. كلا ، كان مجرد طفل .

ـ طفل ؟

ـ نعم . وتابع قائلاً :

ـ لا أعرف القصة على وجه التحديد ، فالروايات كثيرة ، ولكنني سمعت أن رجلا يدعى ويليامز استأجر المنزل منذ ثلاثين عاماً ، لم يكن أحد يعلم شيئاً عن ماضيه .. كان يقيم وحده في المنزل دون خدم ، ولم يكن له أصدقاء ، وقد كان يغادر المنزل أثناء النهار ، وكان له طفل وحيد ، طفل صغير .

وبعد حوالي الشهرين من إقامته في المنزل ، ذهب إلى لندن ، وما كاد يصل إلى العاصمة حتى تم التعرف عليه باعتباره مجرماً تطارده الشرطة ، ويبدو أن جرمه كان خطيراً ، لأنه بدلاً من تسليم نفسه ، اطلق الرصاص على نفسه

وفي نفس الوقت كانت لدى الطفل لا الذي يقيم وحده في المنزل ، كمية محدودة من الطعام ، وظل الطفل ينتظر رجوع أبيـه يوماً بعد يوم ، ولسوء حظه كانت التعليمات الصادرة له من ابيه ألا يغـادر المنزل مهما كانت الظروف ، او يتحدث مع اي انسان ، وكان المخلوق الصغير ضعيفاً ، معتل الصحة ، ولم يكن باستطاعته أن يخالف أوامر ابيه ، وكان الجيران يسمعون الطفل اثناء الليل يبكي بكاءاً حـاراً حتى يتفطر قلبه .

سكت المستر راديش قليلا ، ثم استأنف حديثه قائلا :

– والذي حدث ان الطفل مات من الجوع .

قال السمسار ذلك كمن يعلن عن بدء سقوط المطر .

وسألت مسز لانكستر :

– والمفروض أن شبح الطفل هو الذي يسكن المنزل .

تردد المستر راديش برهة قبل أن يقول :

– لا شيء يرى في المنزل ، يقول النـاس انهم يسمعون فقط بكاء الطفل .

تحركت المسز لانكستر نحو الباب الأمامي قائلة :

– إني أميل إلى هذا المنزل ، ولن احصل عـلى أفضل منه بهذا الايجار ، سأفكر في الأمر ، ثم أعاود الاتصال بك .

* * *

قالت المسز لانكستر وهي تدير بصرها في المكان باعجاب :

ـ ألا يبدو المنزل بهيجاً يا أبي .

تم فرش المنزل بالأثاث اللامع والسجاجيد ذات الألوان الزاهية ، فتغير مظهره بشكل واضح ..

كانت مسز لانكستر توجه حديثها إلى رجل عجوز متهدل الكتفين تتألق في عينيه نظرات غامضة .. كان المستر وينبورن مختلفاً تمام الاختلاف عن ابنته ، فقد كان خيالياً ، بعكس ابنته الواقعية ..

وقال لها باسماً :

ـ نعم .. لم يكن أحد يحلم بالاقامة في منزل مسكون !

ـ بابا ، لا تقل هذا العبث وفي اليوم الأول .

ابتسم المستر وينبورن وقال :

ـ حسناً يا عزيزتي .. سوف نتفق على أنه لا توجد أشياء مثل الأشباح .

ـ أرجوك ألا تقول شيئاً من هذا أمام جيوف ، فهو ذو عقلية في الخيال .

كان جيوف هو الابن الصغير للمستر لانكستر ، وكانت العائلة تتكون من المستر وينبورن ، وابنته الأرملة وجيوفري

بدأت قطرات المطر تتساقط على النافذة ـ بيتر باتر .. بيتر باتر . وقال المستر وينبورن معلقاً على الصوت :

ـ هل تسمعين ؟ اليس الصوت مشابهاً لوقع خطوات شخص صغير ؟

قالت المسز لانكستر باسمة :

- بل هو صوت المطر .

قال الأب وهو يرهف اذنيه :

- ولكن هذا صوت خطوات .

اعتدلت المسز لانكستر قائلة :

- هذا وقع أقدام جيوفري وهو يهبط الدرج .

اضطر المستر وينبورن إلى أن يشاركها الضحك ، كانا يتناولان الشاي في الصالة ، وكان يدير ظهره للسلم ، وقد استدار في تلك اللحظة ليواجه السلم ..

كان جيوفري الصغير الصغير يهبط درجــات السلم ببطء وخطوات منتظمة ، بحذر الطفل الذي يتعامل مع مكان جديد ، وكانت درجات السلم من خشب البلوط العارية من السجاد .

هبط الصبي ليقف بجوار أمه ، وبينما كان الصبي يخطو على أرض الصالة ، شهق المستر وينبورن بارتياع ، فقد سمع بوضوح وقع خطوات طفــل يهبط الدرج ، كأن شخصاً يتبع جيوفري ، وهو يجر ساقيه جراً ..

وهز المستر وينبورن كتفيه وهو يقول في دهشة :

- ربما كان صوت المطر ..

وقال الصبي لأمه :

- أريد ان اتذوق هذا الكعك .

سارعت الأم لتلبية رغبة ابنها ثم سألته باهتمام :

ـ حسناً يا بني ، هل تحب البيت الجديد ؟

وقال جيوفري وفمه ممتلىء بالطعام :

ـ أحبه جداً جداً .

انتظر الصبي برهة حتى يمضغ الطعام ، ثم تابع يقول ،

ـ أوه يا مسامي .. توجد غرف كثيرة بالسطح ، وتقول مربيتي جين إني استكشفها ، وربما عثرت على باب سري .. تقول جين أنه لا توجد أبواب سحرية ، ولكنني أعتقد اني سأعثر على واحد ، على أية حال أعلم أنه توجد في السطح مواسير كثيرة ، مواسير مياه ، وبوسعي أن العب بها ، وهل أستطيع أن أشاهد الغلاية ؟

وقالت المسز لانكستر :

ـ سنفكر يا عزيزي في أمر غرف السطح غداً ، ما رأيك الآن في أن نلهو بلعبة المكعبات ، وتبني لنفسك بيتاً أو آلة ؟

وقال له جده :

ـ ما رأيك في بناء غلاية .

أشرق وجه جيوفري وقال :

ـ أصنعها بالمواسير .

ـ نعم ، بعدد كبير من المواسير .

انصرف الصبي مسرعاً ليبحث عن اللعبة ، كان المطر لا يزال يتساقط أرهف المستر وينبورن أذنيه ، نعم .. ربما كان الصوت لقطرات المطر ، ومع هذا فهو يسمع وقع أقدام بوضوح .

حلم العجوز بحلم غريب في تلك الليلة ، حلم أنه يمشي في مدينة

ضخمة ، ولكنها مدينة أطفال ، كل سكانها من الأطفال ، ورأى جميع الأطفال في الحلم يندفعون نحو الغريب القادم صائحين : هـل أحضرته معك ؟ وكان يبدو أنه يفهم ما يقصدونه ، وهز رأسه في أسف ، وعندما رآه الأطفال أداروا له ظهورهم وهم يبكون بكاءاً مراً .

بهتت صورة المدينة والأطفال ، واستيقظ العجوز ليجـــد نفسه في سريره ، ولكن نشيج الأطفال كان لا يزال يرن في أذنيه ، ورغم أنه كان في كامل وعيه ، إلا أن أصوات البكاء كانت مسموعة بوضوح ، وتذكر الجد أن جيوفري ينام في الطابق الأرضي تحته ، في حين كان صوت البكاء الذي يسمعه صادراً من أعلى .

جلس الجد في سريره وأشعل عوداً من الثقــاب ، وانقطع البكاء في الحال .

لم يرو المستر وينبورن لابنته الحلم الذي رآه أو الصوت الذي سمعه في أعقاب الحلم ، فربما كان قد تخيل ذلك ، إلا انه سمع صوت البكاء مرة ثانية أثناء النهار .

كانت الرياح تصفع المدخنة ، ولكن ذلك كان صوتاً منفصلاً عن صوت بكاء مرير لطفل ينفطر قلبه من الأسى .

اكتشف كذلك أنه ليس الشخص الوحيد الذي يسمع الصوت . فقد سمع الخادمة تقول للوصيفة : لا أعتقد أن في قلب المربيــة ذرة من الحنان ، لأنني سمعت السيد جيوفري يبــكي بكاء مراً هذا الصباح .

وكان الصبي قد وصل ليتناول الافطار في أحسن صحة ، وهو متهلل

الأسارير ، وكان المستر وينبورن يعلم أن البكاء لم يكن صادراً عن جيوفري ، وإنما عن ذلك الطفل الآخر الذي يجر ساقيه جراً ، والذي فزع الجد لدى سماعه وقع أقدام في المرة الأولى .

كانت المسز لانكستر وحدها التي لا تسمع شيئاً ، وربما لم تكن أذناها مهيأتين لسماع الأصوات الصادرة من العالم الآخر ، ورغم هذا فقد تلقت بدورها صدمة عندما جاءها جيوفري يقول :

ـ مامي ، أريد منك أن تسمحي لي باللعب مع الولد الصغير .

رفعت الأم رأسها باسمة لتقول له :

ـ اي ولد صغير يا حبيبي ؟

ـ لا اعلم ما اسمه ، كان في إحدى غرف السطح يبكي وهو جالس على الأرض ، ولكنه ولى هارباً عندما رآني ، أعتقد أنه خجل مني (قال ذلك باحتقار) : لا يتصرف كالأطفال الكبار .

ومرة ثانية ، بينما كنت في غرفتي مشغولاً بلعبي ، رأيته واقفاً بالقرب من باب حجرتي يراقبني وأنا أقيم منزلاً ، وكان يبدو عليه الشعور بالوحدة الموحشة كأنه يرغب في اللعب معي ، وقلت له : تعال واشترك معي في بناء آلة ، ولكنه لم يفعل شيئاً ، واكتفى بالنظر الي ، كأنه يرى كمية كبيرة من الشيكولاتة ، وقد طلبت منه أمه ألا يلمسها .

تنهد جيوفري وهو يسترجع تلك الذكريات الأليمة ..

ثم أردف يقول :

ـ ولكنني عندما سألت جين عمن يكون ذلك الطفل ، وأخبرتها

إنني أرغب في اللعب معه ، اخبرتني أنه لا يوجد طفل صغير في المنزل ، وطلبت مني ألا أردد هذه القصص السخيفة ، انني لا أحب جين ابداً .

نهضت المسز لانكستر وهي تقول :

ـ لقد كانت جين على حق .. لا يوجد طفل صغير في هذا المنزل غيرك .

فقال الطفل :

ـ ولكنني رأيته .. أوه يا مامي .. ارجوك أن تسمحي لي باللعب معه ، فهو يبدو وحيداً تعساً ، إنني أريد أن أفعل شيئاً لأبدد أحزانه .

كانت المسز لانكستر على وشك أن تقول شيئاً ، ولكن اباها هز رأسه وقال الطفل برقة زائدة :

ـ جيوفري .. يا عزيزي ، ذلك الولد الصغير يعاني من الوحدة ، وربما كان باستطاعتك أن تفعل شيئاً لتخفف من آلامه ، وإنما يجب عليك ان تكتشف الوسيلة بنفسك ـ كما تفعل بالنسبة اللغز ، هل فهمت قصدي ؟

فقال الطفل مستفهماً :

ـ هل السبب لأنني كبرت ، ولا بد ان افعل كل شيء بنفسي ؟

ـ نعم ، لأنك كبرت .

عندما انصرف الطفل من الغرفة ، أدارت المسز لانكستر رأسها نحو ابيها وقالت بنفاد صبر :

ـ بابا ! هذا اقتراح سخيف ، ان تشجع الولد على الايمان بصدق ما تقوله الخادمات من قصص سخيفة .

وأجابها العجوز قائلاً برقة :

لم تخبره الخادمات بشيء على الاطلاق ، لقد رأى بعينيه ما سمعته اذناي ، وما كان باستطاعتي أن أراه لو انني كنت في مثل عمره .

قالت المسز لانكستر :

ـ ولكن هذا تخريف ، لماذا لا اسمع انا او أرى ؟

ابتسم المستر وينبورو ابتسامة ملل ، ولم يقل شيئاً ..

وعادت ابنته تسأله :

ـ لماذا ؟ ولماذا قلت له أن باستطاعته أن يساعد ذلك الطفل ؟ الأمر كله يبدو مستحيلاً .

نظر اليها الرجل العجوز مفكراً ، ثم قال :

ـ لماذا لا يستطيع ؟ هل تذكرين كلمات القصيدة التي تقول :

أي مصباح في يد القدر يملكه
كي يرشد الأطفال الصغار الذين يتعثرون في الظلام ؟
أجابت السماء قائلة : بالفهم الأعمى !

يملك جيوفري هذا الفهم الأعمى ، يمتلك كل الأطفال هذه الملكة وكلما كبرنا فقدنا هذه الخاصية ، ويحدث في بعض الأحيان ، عندما يتقدم بنا العمر ، أن يعود الينا بصيص من هذه الملكة ، ولكن المصباح يزداد اشتعالاً وهو في طفولته ، هذا هو السبب الذي يجعلني أتصور أن جيوفري قادر على المساعدة .

وتمتمت المسز لانكستر قائلة بضعف :

– إني لا افهم .

– كذلك أنا أيضاً .. ذلك الطفل يواجه المتاعب ويريد أن يتحرر منها ، ولكن كيف ؟ لا أدري ، ولكنه أمر مريع أن يفكر الانسان في الموضوع .. موضوع ذلك الطفل الذي يتمزق قلبه من شدة البكاء .

* * *

أصيب جيوفري بمرض شديد بعد انقضاء شهر على ذلك الحوار ، كانت الرياح الشرقية بالغة العنف ، ولم تكن بنية الطفل قوية ، وهز الطبيب رأسه في أسى عندما اكتشف خطورة الحالة ، وقد صارح المستر وينبورن في غياب الأم بأن الحالة ميئوس منها تماماً ، وقال له : لم يكن من المقدر لهذا الطفل أن يعيش حتى يكبر تحت ظل أي ظرف . وأضاف إلى ذلك قوله : فقد كان يعاني من مرض خطير في الرئة منذ وقت طويل .

بدأت المسز لانكستر تحس بوجود الطفل الآخر أثناء قيامها بتمريض ابنها ، وكان من الصعب في البداية تمييز بكاء الطفل من صوت الريح ، ولكنه أخذ مع مرور الوقت يزداد وضوحاً بشكل لا يمكن أن تخطئه الأذن .

وأخيراً بدأت تسمع البكاء في لحظات الصمت التام : نشيج طفل يتمزق قلبه من الأسى .

ازدادت حالة جيوفري تدهوراً ، وكان يتحدث أثنـاء فترات سباته العميق عن : الولد الصغير ، ويكرر ذلك المرة بعـد الأخرى ، ثم يصيح قائلاً :

- إنني أرغب في مساعدته ، أريد أن أساعده !

كانت تعقب فترات السبات العميق حالة من الصحوة ، حيث يلزم جيوفري السكون وأنفاسه تتردد بصعوبة ، ولم يكن أمام الأم سوى أن تنتظر في صبر ، حتى جاءت ليلة يخيم فيها السكون والهدوء التامين بحيث لا تهب نسمة واحدة من الهواء ، وتململ الطفل في رقدتـه وفتح عينيه ، وتجاوزت نظراته أمه إلى الباب المفتوح ، وحاول أن يتكلم ، وانحنت الأم فوقه لتلتقط الكلمات الخافتة ، كان الطفل يقول هامساً : حسناً .. إني قادم ..

ثم سكنت حركة الطفل ، وأصيبت الأم بفزع شديد ، وعبرت الغرفة إلى الركن الذي يجلس فيه أبوها ، وسمعت صوت ضحكة تنم عن الفرح أطلقها الطفل الآخر .. ضحكة تعبر عن الارتياح والنصر ، وتردد صدى الضحكة في الغرفة ..

وصاحت الأم قائلة بارتياع :

- إني خائفة .. إني خائفة !

لف الأب ذراعه حولها لحمايتهـا ، وهبت نسمة مفاجئة من الهواء بسرعة ، ثم لف الصمت الغرفة مرة أخرى ..

انقطع الضحك ، ثم بدأ يتسلل صوت خافت لا يكاد يسمع لم يلبث أن ازداد وضوحاً .. صوت أقدام تدب على الأرض وهي تبتعد بسرعة

عن المكان .

بيار بار .. بيار بار .. كان صوت وقع تلك الأقـدام تجري ، ولكن – دون أدنى شك – يتبعهـــا في هذه المرة وقع أقدام أخرى تتحرك بصورة أسرع .

قفز العجوز وابنته متجهين نحو الباب .. وسمعا وقع الأقدام تهبط الدرج .. وقع أقدام الطفلين معاً ..

نظرت المسز لانكستر إلى أبيها قائلة بحدة :

– إنها وقع أقدام طفلين !

اتجهت الأم والفزع في عينيها نحو سرير الطفل ، ولكن أباها منعها برفق ، واستمعا إلى الصوت .. بيار بار .. بيار بار .. وأخـذ الصوت يزداد خفوتاً ، ثم خيم الصمت مرة أخرى ..

المـذياع

قال الدكتور ميندبل باللهجة التي تعود ان يتحدث بها كل الأطباء :
تجنبي أولاً وقبل كل شيء القلق والتوتر العصبي ..

لم تطمئن المسز هارتر لسماعها تلك العبارة بقدر ما ازدادت شكوكها ، وأردف الطبيب يقول :

ـ يوجد بعض الضعف في القلب ، ولكنني أستطيع ان اؤكد لك انه لا يوجد ثمة مبرر للقلق ، ولكنني أوصي في نفس الوقت بتركيب مصعد ، ما رأيك في هذا ؟

ازداد قلق المسز هارتر ، بينما تزايد سرور الطبيب الذي كان يفضل التعامل مع الأغنياء ، حتى يمـــارس هوايته في وصف أكثر اشكال العلاج غرابة ..

وتابع الطبيب يقول :

ـ نعم .. مصعد حتى نتجنب أي لون من الارهاق ، كما أوصي

ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة ، وتجنب صعود التلال ، وأهم من ذلك كله الترويح الذهني ، لا ترهقي صحتك .

كان الطبيب اكثر صراحة مع ابن اخيها - شارلز ريدجواي - عندما انفرد به حيث قال له :

- لا تسيء فهمي .. قد تعيش عمتك أعواماً طويلة ، وهذا هو المرجح .. ولكنها أمام اي صدمة قد تنتهي في غمضة عين ، لهذا يجب أن تحيا حياة هادئة دون ارهاق او تعب ، ويجب ان توفر لها جواً من المرح والتسلية .

همس شارلز ريدجواي مفكراً : التسلية ..

همس شارلز ريدجواي لنفسه مفكراً : التسلية ..

كان شارلز شاباً ذا عقلية مفكرة ، وكان يؤمن في نفس الوقت بتنمية مواهبه كلما استطاع ذلك .

واقترح شارلز في نفس المساء على عمته تركيب مذياع في المنزل ، ورغم أن مزاج مسز هارتر كان منحرفاً لفكرة المصعد ، فإن شارلز طاردها بالحاحه وقدرته على الاقناع .

واعترضت عمته قائلة :

- إنني لا أكترث بهذه الاختراعات الحديثة ، الموجات .. أنت تعلم الموجات الكهربائية ، ربما أثرت فيّ .

أخذ شارلز يحبذ هذه الفكرة ، إلا أنها ظلت على عدم اقتناعها ، وقتمت تقول :

ـ الكهرباء .. تستطيع أن تقول ما تريد يا شارلز . إلا أن بعض الأشخاص يتأثرون بالكهرباء .. كان الصداع ينتابني دائماً أمام العاصفة الرعدية .

ـ لم ييأس وقال :

ـ عمتي العزيزة ماري دعيني أزيد لك الأمر إيضاحاً .

كانت له خبرة في الموضوع الذي يتحدث عنه ، والقى عليها محاضرة طويلة مروجاً الفكرة ، متحدثاً عن المفاتيح اللامعة والصمامات والذبذبات العالية والمنخفضة وتكبير الصوت المكثف ، وأحست مسز هارتر بأنها تغرق في سيل من الكلمات التي لا تفهمها ، واضطرت في النهاية على الموافقة قائلة :

ـ بالتأكيد .. إذا كنت تعتقد .

ـ يا عمتي العزيزة ماري .. إنه الشيء المناسب لك تماماً ، حتى إنه يسليك ولا تشعري بالملل .

تم تركيب المصعد الذي أوصى به الطبيب بعد فترة وجيزة ، رغم أن مسز هارتر كانت لا ترحب بدخول أي رجل غريب إلى المنزل خوفاً على طقم أدوات المائدة الفضي القديم .

وسرعان ما أضيف إلى المنزل جهاز الراديو بمفاتيحه الكثيرة التي ظلت المسز هارتر ترمقها بارتياب وتردد .

أدار شارلز مفتاح المذياع وعمته تنظر إلى الصندوق الضخم بعدم الارتياح وقال الشاب :

ـ استمعي يا عمة ماري .. نحن الآن في برلين .. اليس هذا رائعاً ؟

ألا تسمعين صوت الفتى ؟

- إني لا أسمع سوى أزيز وخشخشة .

استمر الشاب في إدارة المفاتيح ، ثم قال بحماس :

- بروكسل .

وصاحت المسز هارتو باستياء :

- يبدو إننا انتقلنا إلى بيت الكلاب !

وقال شارلز ضاحكاً :

- ها ها ! تستطيعين الآن أن تمزحي كما تشائين يا عمة ساري .. اليست هذه نتيجة طيبة ؟

* * *

لم تستطع المسز هارتو سوى الابتسام ، فقد كانت مولعة بابن أخيها وكانت تعيش معها قبل ذلك لبضع سنوات ابنة أخ تدعى ميريام هارتو ، وكان في نيتها أن توصي بكل ثروتها لها ، إلا أن ميريام فشلت في ارضائها ، فقد كانت عصبية غير راضية عن الحياة التي تعيشها عمتها وكانت تكثر الخروج ، ثم تعرفت في النهاية على شاب ، ولم ترض العمة عن هذه العلاقة .

وأعادت مسز هارتو ابنة أخيها إلى أمها مع رسالة كأنها طرد من البضائع ، وتزوجت ميريام الشاب الذي أحبته ، وأرسلت لها عمتها علبة مناديل ومنضدة صغيرة للشاي ..

وعندما وجدت المسز هاريز بنات الاخوة غير مناسبات ، اتجهت نحو أبناء الاخوة ، وأحرز شارلز نجاحاً منقطع النظير منذ قدومه للعيش مع عمته ، فقد كان مرحاً يصغي باهتمام إلى كل كلمة تقولها عمته على خلاف ميريام التي كانت تمل الاستماع إلى حديث عمتها .

وكان الشاب يكرر في اليوم الواحد قوله إن أحاديث عمته ممتعة لا يمل الانسان من سماعها ، وبذا استطاع أن يكسب عطف عمته ..

وكتبت المسز هاريز لمحاميها تعليمات كي يغير الوصية ، وأرسل لها المحامي الوصية الجديدة التي وقعتها راضية ..

أثبت شارلز بالمذياع الذي أضافه للبيت أنه كسب أرضاً جديدة ، فبعد الموقف الرافض للمسز هاريز من الجهاز الجديد في البداية ، أصبحت مفتونة بالمذياع ، وكانت تستمتع به خاصة عندما يكون شارلز في الخارج ، لأنه أثناء وجوده لم يكن يترك مفاتيح الجهاز لحظة واحدة ، أما عندما تكون العمة ماري وحدها ، فهي تجلس في هدوء لتستمع إلى سيمفونية أو محاضرة ، وهي في قمة السعادة .

وقع أول حادث بعد ثلاثة شهور من وصول الجهاز ..

كان الشاب خارج المنزل يلعب البريدج مع بعض أصدقائه ، وبينما كانت المسز هاريز تستمع إلى مغنية السوبرانو . آني لوري .. وتوقف الصوت فجأة مع استمرار الأزيز ، ثم لم يلبث الأزيز أن توقف بدوره وخيم الصمت التام ، وأعقب ذلك بعض الأزيز الذي لم تجد له المسز هاريز تعليلاً ، ثم طرق سمعها صوت واضح . صوت رجل يتحدث بلكنة إيرلندية يقول :

– مـاري – هل تسمعين صوتي يا ماري ؟ أنا باتريك .. سوف آتي لزيارتك في القريب العـاجل ، هل ستكونين مستعدة لاستقبالي يا ماري ؟

انقطع الصوت .. وفجأة عادت أغنية آني لوري تدوي في أرجـاء الغرفة ..

تسمرت المسز ماري في مكانها .. هل كانت تحلم ؟ باتريك ! صوت باتريك ! باتريك يتحدث اليها ؟ لا شك أنها كانت تحلم .. ربمـا كانت تهلوس ، لا شك . إنها غفلت لمدة دقيقة أو دقيقتين ، ولكن يا له من حلم أن تستمع إلى صوت زوجها من العالم الآخر ، ارتعدت قليلاً وهي تهمس لنفسها : ما هي الكلمات التي كان يقولهـا .. سآتي لزيارتك في القريب العاجل ، هل ستكونين مستعدة لاستقبالي يا ماري ؟

أهو تحذير سابق ؟

هل هو ضعف القلب بسبب تقدمها في العمر ؟

قالت المسز هارتر محدثة نفسها وهي تغادر مقعدها :

– إنه تحذير . لقد أضعت الكثير من المال في شراء المصعد .

لم تحدث أحداً بشأن التجربة التي مرت بها ، إلا أنهـا ظلت مبلبلة الخاطر خلال اليومين التاليين ..

ثم جاءت المناسبة الثانية ، كانت وحدها للمرة الثانية ، وبينما الاذاعة تقدم معزوفة موسيقية .. توقفت الموسيقى ، ثم جاء صوت من بعيد .. صوت غريب كأنه صادر من عالم آخر يقول :

.. باتريك يتحدث اليك يا ماري .. سآتي لرؤيتك في القريب العاجل

يا مـاري ..

توقف الصوت ، وتلاه أزيز ابرهة قصيرة ، ثم عادت الموسيقى من جديد .

تطلعت المسز هارتر إلى ساعة الحائط .. كلا .. إنها واثقة من أنهـا لم تكن نائمة في هذه المرة ، ولقد سمعت صوت باتريك بوضوح . كانت واثقة من أنها ليست هلوسة ..

وأجهدت ذهنها في تذكر ما قاله شارلز عن نظرية الموجـات الأثيرية .

هل يمكن أن يكون باتريك هو المتكلم حقاً ؟

هل استغل قدرة الأجهزة العلمية الحديثة ليبلغهـا رسالته على أمواج الاثير ؟

استدعت المسز هارتر خادمتها اليزابيث ، وهي سيدة ضخمـة في الستين من عمرها ، تحمل في قلبها قدراً كبيراً من الحب لمخدومتها .

وقالت المسز هارتر :

– اليزابيث .. هل تذكرين ما قلته لك من قبل ؟ الدرج العلوي في الجانب الايسر من مكتبي .. إنه مغلق بالمفتاح وأنت تعرفين مكانه هل كل شيء معد ؟

– معد لاي شيء يا سيدتي ؟

– لجنازتي .. أنت تفهمين جيداً ما أعنيه يا اليزابيث ، لقد ساعدتني بنفسك في وضع الاشياء .

عبست اليزابيث وقالت مولولة :

- أوه يا سيدتي .. اطردي هذه الافكار من مخيلتك ، إنني أراك في أفضل صحة .

وقالت المسز هارتو بطريقة عملية :

- كل واحد منـــا سيرحل ذات يوم ، فقد بلغت أرذل العمر يا الـــيزابيث . كفي عن البكاء ، او ابحثي لك عن مكان آخر تبكين فيه .

انسحبت اليزابيث وهي لا تكف عن البكاء ..

وهمست مسز هارتو لنفسها :

- عجوز حمقاء ولكنها مخلصة .. مخلصة للغـاية .. هل أوصيت لها بخمسين جنيها ، أم مائة ؟ يجب ان اترك لهـا مائة لانها خدمتني فترة طويلة .

ظلت مشغولة البال بتلك المسألة ، وكتبت رسالة في اليوم التالي إلى المحامي تطلب منه أن يعيد لها الوصية لتلقي عليها نظره أخرى .

وفاجأها شارلز في اليوم التالي أثناء الغداء بقوله :

- بهذه المناسبة يا عمتي مـاري .. من ذاك العجوز المضحك الذي يوجد في الغرفة الاضافية ؟ أعني صوره العجوز ذي اللحية الكثة ؟

نظرت اليه العمة بصرامة قائلة :

- هذا عمك باتريك أيها الشاب !

- أوه .. اعرب لك عن بالغ أسفي .. لم اكن أعـــلم أن الصورة له ..

قبلت العمة الاعتذار بتأفف ..

وقال الشاب في تردد :

– إني أعجب .. في الواقع ..

وتوقف عن الكلام ..

وصاحت المسز هارتو قائلة بانفعال :

– حسناً .. ماذا كنت تريد أن تقول ؟

– لا شيء .. ربما لم يكن الامر يستحق الحديث

– يجب أن تخبرني يا شارلز عن السبب الذي دفعك إلى الحديث عن صورة عمك ؟

بدا الارتباك على شارلز وقال :

– لقد اخبرتك يا عمتي ، إنها مجرد خيالات .. خيالات سخيفة .

وقالت العمة بإصرار :

– شارلز . إني أصر على سماع رد على سؤالي !

– سأخبرك ما دمت تصرين ، خيل إليّ إني رأيته .. الرجل في الصورة .. كان يتطلع من النافذه لحظة وصولي في الليلة الماضية ، ربما كان ذلك انعكاس الضوء .. تساءلت : من يكون هذا الرجل ؟ كان يبدو لي شخصاً ينتمي إلى العصور الماضية ، وعندما استفسرت من اليزابيث اخبرتني أنه لا يوجد ضيوف أو غرباء في المنزل ..

وتصادف أن ذهبت في ساعة متأخرة من الليل إلى الغرفة الخالية ورأيت الصورة المعلقة على الحائط ، وفوجئت بأنها صورة الرجل الذي رأيته ! أعتقد أن تفسير ذلك سهل .. إنه العقل اللاواعي .. لا شك إني لمحت الصورة من قبل دون أن أدرك ذلك ، ثم تخيلت بعد ذلك

الوجه الذي رأيته في النافذه .

قالت المسز هارتر بغيظ :

– النافذه التي تقع في طرف المنزل ؟

– نعم .. لماذا ؟

قالت المسز هارتر بشرود :

– لا شيء ..

لكنها لم تستطع أن تخفي قلقها ، فقد كانت تلك الغرفة ، غرفة ملابس زوجها ..

* * *

كان شارلز متغيباً عن المنزل تلك الليلة أيضاً ، بينما تجلس مسز هارتر تصغي إلى الراديو ، حين انقطع الارسال لتستمع إلى ذاك الصوت الغريب القادم من العالم الآخر يقول :

– ماري .. أنت مستعدة الآن لاستقبالي ، سوف آتي يوم الجمعة ، الجمعة في التاسعة والنصف .. لا تخافي فلن تشعري بأدنى ألم .. كوني مستعدة .

عادت الموسيقى بعد انتهاء الصوت مباشرة ..

وظلت المسز هارتر جالسة في مكانها ساكنة بعض الوقت ، وقد امتقع وجهها وأحست بجفاف في حلقها ، ثم توجهت في هدوء إلى مكتبها لتكتب السطور التالية :

« الليلة في تمام الساعة التاسعة والربع .. سمعت صوت زوجي بوضوح ، أخبرني أنه سيأتي في منتصف العاشرة من مساء الجمعة القادم ، وإذا تصادف إني مت في ذاك اليوم ، وتلك الساعة ، فإني أحب أن تذاع هذه الحقائق لاثبات امكانية اتصال الأرواح بنا من العالم الآخر ..

ماري هارتر

أعادت المسز هارتر قراءة ما كتبته ، ووضعت الرسالة في مظروف كتبت عليه عنواناً معيناً ، ثم دقت الجرس لتستدعي اليزابيث ، وحين جاءت الخادمة مسرعة ، سلمتها مخدومتها الرسالة قائلة :

ــ اليزابيث .. إذا كان مقدراً لي أن أموت مساء الجمعة القادم ، أرجوك أن تسلمي هذه الرسالة للدكتور ميليل .

حاولت الخادمة الاعتراض ، ولكن مخدومتها استرسلت قائلة :

ــ لا تجادليني .. سبق أن قلت بنفسك أنك تؤمنين برسائل التحذير لقد تلقيت الآن رسالة تحذير .. وهناك أمر آخر ، تركت لك في وصيتي خمسين جنيهاً ، وأحب أن أزيد المبلغ إلى مائة ، وإذا لم أتمكن من الذهاب بنفسي إلى البنك قبل موتي ، على المستر شارلز أن يتولى هذه المهمة .

وكما حدث من قبل ، طلبت مسز هارتر من خادمتها أن تكف عن البكاء ، وتنفيذاً لخطتها ، فاتحت شارلز في الموضوع صباح اليوم التالي قائلة :

ــ تذكر جيداً يا شارلز ، إذا حدث لي اي شيء ، يجب ان تحصل

اليزابيث على خمسين جنيهاً أخرى .

وقال لها شارلز بابتهاج :

– اراك مكتئبة في هذه الأيام يا عمتي ، ما الذي سيحدث لك ؟ ووفقاً لما قرره الدكتور ميديل ستعيشين عشرين عاماً أخرى حتى تحتفلي ببلوغك المائة عام .

ابتسمت المسز هاربر ولم تقل شيئاً .

وانتظرت دقيقة قبل ان تقول :

– ماذا ستفعل مساء الجمعة يا شارلز ؟

بدت الدهشة على وجه شارلز وهو يقول :

– دعاني أبوتجز للعب ، ولكن إذا أحببت أن ابقى معك .

قاطعته العمة قائلة باصرار :

– كلا .. كلا ، بالتأكيد يا عزيزي .. إني أحب ان اكون وحدي في تلك الليلة .

رمقها الشاب بدهشة ، ولكن المسز هاربر لم تقدم له تفسيراً مقبولاً فقد كانت سيدة عجوزاً صلبة الرأي ، وقد كانت تريد ان تجتاز التجربة وحدها .

* * *

كان المنزل غارقاً في السكون التام مساء الجمعة ، وجلست المسز هاربر كعادتها أمام المدفأة وقد اعدت الترتيبات اللازمة لمواجهة الموقف ،

ذهبت إلى البنك في الصباح وسحبت خمسين جنيهاً سلمتها اليزابيث متجاهلة اعتراضها ودموعها .. وجمعت كل متعلقاتها ووضعت بطاقات على بعض قطع الجوهرات بأسماء الأقارب والأصدقاء الذين أوصت لهم بها ، كما كتبت قائمة بتعليماتها لشارلز .

القت نظرة اخيرة على المظروف الطويل الذي تمسكه في يدها .. كانت تلك الوصية التي سلمتها المسز هوبكنسون مصحوبة بتعليماتها .. ورغم أنها قرأتها قبل ذلك مراراً ، إلا أنها أعادت قراءتهـا لتنعش ذاكرتها ..

تركت خمسين جنيهاً لـ « اليزابيث مارشال » تقديراً لتفانيها في الخدمة وأوصت بخمسمائة جنيه لكل من شقيقتها وابن عم لها ، وبقية ثروتهـا لابن عمها العزيز شارلز ريدجواي .

هزت المسز هارتر رأسها في رضى .. سوف يصبح شارلز رجـلا ثرياً بعد موتها ، فقد كان ولداً باراً بها ، شديد العطف عليها ، يعمل كل ما في وسعه لارضائها .

تطلعت إلى ساعة الحائط .. بقيت ثلاث دقائق قبـــل أن تعلن الساعة منتصف العاشرة ..

حسناً .. أنا مستعدة الآن .. وهي هادئة الأعصاب تماماً ، ورغم انها كانت تكرر على نفسها تلك الكلمـات مرات عديدة ، إلا أن دقـــات قلبها كانت تزداد عنفاً ، وأعصابها تزداد توتراً مع مرور كل ثانية .

التاسعة والنصف .. جهاز الراديو مفتوح ..

ماذا تحب أن تسمع ؟ النشرة الجوية أم صوت الرجل الذي رحل من هذا العالم منذ ربع قرن ؟

لكنها لم تسمع هذا أو ذاك . وسمعت بدلاً من ذلك صوتاً مألوفاً صوتاً تعرفه جيداً ولكنه يبعث الليلة في جسمها احساساً بالبرودة ، كأن يداً مثلجة توضع فوق قلبها ، وسمعت صوت انسان يدلف من الباب الأمامي للمنزل ..

تكرر الصوت مرة ثانية ، وأحست بنسمة من الهواء البارد تعصف بالحجرة ..

لم يداخلها اي شك في طبيعة الأحاسيس التي تشعر بهـــا في تلك اللحظة .. تسرب الخوف إلى قلبها .. إنها اكثر من خائفة .. إنهـــا مذعورة ..

تطرق إلى ذهنها فجأة فكرة غريبة :

خمسة وعشرون عاماً تعتبر زمناً طويلاً .. لقد أصبح باتريك غريباً عني الآن ..

الفزع ! كان ذلك هو الاحساس الذي يتملكها ..

وقع خطوات خـــارج الباب .. صوت الخطوات يتوقف ، ثم بدأ الباب يفتح في هدوء ..

هبت المسز هارتر واقفة وهي تترنح من جانب الى جانب وعيناها مركزتان على فتحة الباب ، وسقط شيء من يدها في فتحة المدفأة ..

حاولت ان تصرخ ، ولكن الصرخة ماتت على شفتيها ، كان يقف في فتحة الباب شكل مألوف بلحيته الكثة وحلته العتيقة ..

فقد جاء اليها باتريك !

دق قلبها دقة واحده عنيفة .. ثم توقف قلبها عن الحركة ، وسقطت على الأرض ..

عثرت عليها اليزابيث بعد ساعة ، واستدعت على عجل دكتور ميلنيل وشارلز ريدجواي الذي كان يلعب البريدج مع أصدقائه ، إلا الوقت كان قد فات لتقديم أي معاونة العمة العجوز .

انقضى يومان على وفاه المسز هارتر قبل ان تتذكر اليزابيث الرسالة التي سلمتها لها مخدومتها .

وقرأ الدكتور ميلنيل الرسالة باهتمام بالغ ، واطلع شارلز على الرسالة قائلاً :

- مصادفة بالغة الغرابة .. ويبدو أن عمتك كانت تهلوس وتتخيل أنها تسمع صوت زوجها الراحل ، ولا بد أن أعصابها بلغت حداً كبيراً من التوتر ، حتى إذا حل الموعد الذي تخيلته كانت الصدمة شديده وسببت لها الوفاة .

وقال شارلز :

- الايحاء الذاتي ؟

اجاب الدكتور ميلنيل :

- شيء من هذا القبيل ، سوف أخبرك بنتيجة التشريح في أسرع وقت ممكن رغم أن الشك لا يساورني ، ومن الأفضل تشريح الجثة في مثل هذه الظروف رغم أنه مجرد اجراء شكلي !

هز شارلز رأسه مؤمناً ..

انتهز شارلز فرصة نوم الخدم في الليلة السابقة ووضع سلكاً معيناً كان يصل بين جهاز الراديو وبين غرفته التي تقع في الطابق العلوي .

وحيث ان الليلة كانت شديدة البرد فقد طلب من اليزابيث ان تشعل نار المدفـــأة في غرفته ، وحرق في تلك النار اللحية الكثة والسوالف الكبيرة ، وأعـاد الى الصندوق الكبير ، الموضوع في غرفة السطح الملابس التي كانت لعمه الراحل .

كان على ثقة من أنه بعيد عن الشبهات تماماً ..

لقد نبتت الخطة في ذهنه عندما سمع الدكتور ميلبل يخبره أن عمته قد تعيش سنوات ، ولكن صدمة مفاجئة يمكن أن تقضي عليها في غمضة عين .

عندما انصرف الطبيب ، مضى شارلز يؤدي واجبـــاته بطريقة آلية ، كان عليه ان يعد الترتيبات اللازمة للجنازة ، واستدعـــاء الأقارب الذين يقيمون في مناطق بعيدة ، ولا بد من تدبير اماكن اقامتهم بعد تشييع الجنازة .

تولى شارلز كل هذه الأمور ببراعة ودقة ..

همس لنفسه :

– يا لها من ضربة موفقة ! لم يكن احد يدري – حتى عمتـه – أي موقف خطير يواجهه .. فقد كان مفرضاً للسجن والخراب مـا لم يستطع خلال شهور قليلة ان يدبر قدراً كبيراً من المال .

وقد تم له الآن ما كان يسعى اليه ، ولم يكن التدبير الذي أعده عملا اجرامياً ، كانت مجرد مزحة ، وقد أنقذته من الخراب ، لقد أصبح رجلا ثرياً ..

لم يكن يساوره القلق لأن عمته لم تكن تخفي نواياها وقد صارحته بأنه الوريث الوحيد لمعظم ثروتها .

بينما كان شارلز يسعد بهذه الخواطر ، جاءت اليزابيث لتخبره أن المستر هوبكنسون يرغب في مقابلته .

رسم شارلز على وجهه مظـاهر الحزن ، وذهب إلى المكتب ليحيي الرجل العجوز الذي كان المستشار القانوني للمسز هـارتر خلال ربع القرن الأخير ..

جلس المحامي بناء على إشارة شارلز ، وبعد أن تنحنح قال :

– إنني لم أفهم تمـاماً ما يعنيه خطابك لي يا مستر ريدجواي .. يبدو أنك تتصور أن وصية المسز هارتر في حوزتي ..

حملق شارل في وجهه مدهوشاً وهو يقول :

– ولكنني سمعت عمتي تردد ذلك أكثر من مرة .

– أوه . تماماً .. تماماً كنت احتفظ بالوصية .

– كنت ؟

– هذا هو ما قلته .. غير أن المسز هارتر طلبت مني يوم الثلاثاء الماضي أن أرسل لها الوصية .

تسرب القلق إلى قلب شارلز ..

بينما أردف المحامي يقول :

- سوف تظهر الوصية بين أوراق الراحلة ..

لم يقل شارلز شيئاً ، كان يخشى أن يخونه لسانه ، فقد قام بفحص جميع الأوراق التي تركتها عمته دون أن يعثر على أي وصية بينها ..

وعندما استعاد هدوء أعصابه .. قال أنه بحث جميع أوراق عمته ، وقال المحامي :

- هل عبث أي انسان بمقتنياتها الشخصية ؟

أجاب شارلز بأن اليزابيث هي التي فعلت ذلك !

وعندئذ أرسل المحامي في طلب الخادمة التي جـــاءت على الفور لتجيب على الأسئلة الموجهة اليها ، واعترفت بأنهـــا فحصت كل ملابس سيدتها ومقتنياتها الشخصية ، ولكنها واثقة من أنهـــا لم تعثر على أي مستندات قانونية ، وإنها تعرف جيداً شكل الوصية ، لأن سيدتهـــا كانت تمسكها بين يديها في صباح اليوم الذي توفيت فيه .

وقال المحامي بحدة :

- هل انت واثقة من ذلك ؟

- نعم يا سيدي .. هكذا أخبرتني سيدتي ، واعطتني خمسين جنيهاً ، كانت الوصية داخل مظروف أزرق طويل .

قال المستر هويكنسون :

- هذا صحيح .

وقالت اليزابيث :

- إنني اتذكر الآن .. فقـــد عثرت على ذلك المظروف صباح اليوم التالي فارغاً ، وقد وضعته فوق المكتب .

وأضاف شارلز معقباً :

ـ أذكر أنني رأيته هناك .

وقف شارلز واتجه نحو المكتب ، وعاد بعد قليل يحمل المظروف الأزرق وسلمه للمستر هوبكنسون ..

فحص المحامي المظروف ، ثم هز رأسه قائلاً :

ـ هذا نفس المظروف الذي وضعت فيه الوصية يوم الثلاثاء الماضي .

تطلع كل من الرجلين إلى اليزابيث التي قالت بأدب :

ـ هل تطلب مني شيئاً آخر يا سيدي ؟

ـ كلا ليس في الوقت الحاضر ، شكراً لك .

اتجهت الخادمة نحو الباب ، ولكن المحامي استوقفها بقوله :

ـ لحظة واحدة .. هل كانت نيران المدفأة مشتعلة في تلك الليلة ؟

ـ نعم يا سيدي ، نار المدفأة مشتعلة دائماً .

ـ شكراً لك .. يكفي هذا .

انصرفت الخادمة ، وقال شارلز للمحامي :

ـ ما رأيك الآن ؟

هز المحامي رأسه قائلاً :

ـ سوف نتعلق بأمل ظهور الوصية ، وفي حالة عدم ظهورها .

ـ حسناً .. ماذا يحدث إذا لم تظهر الوصية ؟

أجاب المحامي :

ـ أخشى أن اخبرك انه لا يوجد سوى استنتاج واحد محتمل .. طلبت عمتك الوصية لتعدمها ، وخوفاً من أن تخسر اليزابيث نصيبها ،

فقد اعطتها نصيبها نقداً !

وصاح شارلز قائلا بوحشية :

- ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

- الم يحدث خلاف بينك وبين عمتك يا مستر ريدجواي ؟

شهق شارلز وهو يقول :

- كلا .. فقد كنا على وفاق تام ، منذ البداية وحتى آخر لحظة !

وقال المستر هوبكنسون دون أن ينظر اليه :

- آه !

خيل لشارلز ان المحامي لا يصدقه ، من يدري فلعل ذلك العجوز قد سمع بعض الاشاعات عن المتاعب المالية التي يواجهها ، ومن يدري فلعل نفس الاشاعـــات بلغت مسامع عمته ، وإنها فكرت في تغيير الوصية ..

ولكن شارلز واثق من أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد صدق الجميع اكاذيبه .. يا لسخرية القدر !

لم تحرق عمته الوصية بالتأكيد .. هذا ما تطرق إلى باله ..وتوقفت أفكاره فجأة ..

ما تلك الصورة التي ترتسم أمام عينيه ؟

سيدة عجوز تضغط باحدى يديهـا على قلبها .. ثم ينزلق شيء من يدها .. ورقة .. تسقط الورقة فوق اللهيب المشتعل في المدفأة .

شحب وجه شارلز .. وسمع صوتاً مبحوحا - صوته - يسأل : إذا لم يتم العثور على تلك الوصية ؟

هناك الوصية السابقة للمسز هارتر المؤرخة سبتمبر ١٩٢٠ .. تترك العمة بموجب هذه الوصية كل ثروتها لميريام هارتر ، التي تعرف الآن باسم ميريام روبنسون .

همس لنفسه :

– ماذا يقول هذا المحامي العجوز الخرف ؟ ميريام هارتر .. هل يذهب كل ما خطط له ذكاؤه إلى ميريام !

دوى في تلك اللحظة رنين جرس التليفون .. ورفع شارلز السماعة ليطالعه صوت الدكتور ميتيل الذى قال له برقة :

– أهذا أنت يا ريدجواى ؟ ظننت انك تريد ان تعرف نتيجة التشريح الذى انتهى منذ لحظات .. سبب الوفاة هو نفس ما خمنته ، إلا أن التشريح أثبت أن مرض القلب كان أخطر مما نتصور ، فلم يكن مقدراً لها أن تعيش اكثر من شهرين ، ربما كانت هذه الأخبار تعزيك بعض الشيء ..

قال شارلز :

– هل تسمح ان تكرر ما قلته مرة أخرى ؟

قال الطبيب بصوت اكثر ارتفاعاً :

– لم يكن مقدراً لها ان تعيش أكثر من شهرين .

أعاد السماعة إلى مكانها بعنف ، وخيل اليه أنه يسمع صوت المحامي يأتي من مكان بعيد :

– يا عزيزى المستر ريدجواى .. هل أنت مريض ؟

فليذهب الجميع إلى الجحيم ..
المحامي العجوز بوجهه الكريه !
وذلك الطبيب الحار ميليل ! فلم يعد أمامه بصيص من الأمل ،
فشبح السجن يلوح له من بعيد .
أحس بأن شخصاً يتلاعب به كما يلعب القط بالفأر !
وأن شخصاً لا بد يضحك ساخراً منه ..

حكاية السير آرثر كارمايكل الغريبة

مستقاة من مذكرات الراحل

دكتور ادوار كارستيرز

عالم الطبيعة المشهور

انني على وعي كامل بأنه توجد طريقتـــان مختلفتان للنظر إلى الأحداث الغريبة والمحزنة التي سوف أرويهـا ، ولكن رأيي الشخصي لا يتزعزع ، وقد اقتنعت بضرورة كتابة القصة كاملة ، وأنا أعزو الأحداث الغريبة التي يصعب تفسيرها إلى العلم الذى يحتم عرضها للدراسة .

تبدأ القصة ببرقية تلقيتها من صديقي دكتور سيتل .

وفيما عدا اسم كار مايكل فلم تكن البرقية واضحة ، ونزولاً على رغبة صديقي ركبت قطار الساعة ١٢٫٢٠ من بادنجتون إلى وولدن في هيرفوردشاير .

لم يكن اسم كارمايكل غريباً عني ، فقد كانت تربطني معرفـة

بسيطة بالسير ويليام كارمايكل الراحل ، ورغم إني لم التق به خلال الأحد عشر عاماً الماضية ، وكنت أعرف أن له ابناً هو البارون الحالي ، المفروض أنه يبلغ الان من العمر حوالي ٢٣ عاما ، وأذكر اني سمعت بعض الإشاعات التي تقول إن السير ويليام تزوج للمرة الثانية ، ولكنني لم أكن أذكر شيئا محدداً سوى شعور غامض نحو الزوجة الثانية .

قابلني ستيل في المحطة ، ورحب بي قائلاً :

– كان لطفا منك ان تحضر !

– إنني مصر على معرفة كافة الحقائق .

– إنه أمر لا يخص آرثر .. إنه يتعلق بالـ . المنزل .

وكررت في دهشة :

– المنزل ؟

– لك تجارب عديدة في هذا الشأن يا كارستيرز . أعني البيوت المسكونة بالأشباح .. ما رأيك بهذا الموضوع ؟

– في تسع حالات من كل عشر يكون الأمر دجلا . ولكن الحالة العاشرة . حسناً . إنها تدخل في الظواهر التي يصعب تفسيرها من وجهة النظر المادية ، ومع هذا فأنا ممن يؤمنون بالسحر .

هز ستيل رأسه مؤمناً ، وكنا قد اقتربنا من أبواب حديقة القصر عندما أشار لي صديقي بسوطه نحو قصر أبيض صغير يقع على جانب التل ، وقال :

– هذا هو المكان ، ويوجد شيء غامض في ذلك القصر .. شيء فظيع .. كلنا نحس به ، ولكنني لست ممن يؤمنون بالخرافات .

- أي شكل يتخذه ذلك الغموض ؟

- أفضل أن تكتشف ذلك بنفسك حتى لا تكون متحيزاً لرأيي .

- هذا أفضل ، ولكنني اكون اكثر سعادة لو أنك زودتني بمعلومات أوفر عن العائلة .

- تزوج سير ويليام مرتين ، وآرثر هو ابنه من الزوجة الأولى .. تزوج مرة ثانية منذ تسع سنوات ، والليدي كارمايكل ؟

نقلنا الحقائب إلى عربة يجرها الحصان ، وأخذنا طريقنا نحو وولدن التي تقع على مسافة ثلاثة أميال من المحطة ..

ثم انفجر ستيل قائلا :

- لا يوجد تفسير معقول ، فهذا شاب في الثالثة والعشرين من عمره .. لا أستطيع أن أقول انه يتميز بذكاء خارق ، ولكنه كشاب ينتمي للطبقة العليا الانجليزية يعتبر متميزاً وفي صحة جيدة .. والغريب في الأمر أنه يذهب ذات ليلة إلى فراشه ، ثم يستيقظ صباح اليوم التالي شبه مجنون ، يتجول في القرية غير قادر على معرفة أقرب وأحب الناس اليه !

وقلت في دهشة :

- آه ! حالة فقدان كلي للذاكرة ؟ ومتى حدث ذلك ؟

- صباح الأمس .. التاسع من أغسطس .

- ألم تكن هناك صدمة عصبية أو شيء من هذا القبيل ؟

- ليس بالمرة .. هل افهم أن الموضوع يدخل في دائرة اختصاصي ؟

- إلى حد كبير .

- إذاً فهي قضية اختلال عقلي ؟

داخلني شك مفاجيء، وقلت له :

- هل تخفي عني بعض الحقائق ؟

- كلا .. كلا ..

أكد لي تردده صدق شكوكي ، وقلت له :

- أريد أن أعرف من هي تلك السيدة ؟

تردد ستيل قليلاً ، ثم استرسل يقول :

- أنا شخصياً أحس بالنفور من تلك السيدة وأحس بأن وراءها سر غامضاً .. حسناً .. نعود إلى قصتنا .. أنجب السير ويليام من زوجته الثانية ولداً آخر يبلغ الآن الثامنة من عمره .. مات السير ويليام منذ ثلاث سنوات ، وورث آرثر اللقب والمكان ، واستمرت زوجة أبيه وابنها في العيش معه ..

أحب أن أقول لك إن الضيعة في حالة يرثى لها ، وأن دخل السير آرثر لا يكاد يكفي لتغطية النفقات ، وقد ترك السير آرثر لزوجته دخلاً سنوياً لا يتعدى بضع مئات ، ولكن آرثر لحسن الحظ كان على علاقة طيبة بزوجة أبيه ورحب بمعيشتها معه .. والآن !

- نعم ؟

- خطب آرثر منذ شهرين فتاة جميلة .. المس فيليس باترسون ، وكان المفروض أن يتم الزواج في الشهر المقبل .. والفتاة تقيم الآن في القصر ، ولك ان تتصور مدى حزنها .

أحنيت رأسي في صمت ، كنا نقترب من القصر ، وكانت المروج الخضراء

على عينينا تخدر برفق ، وطالعتنا فجأة صورة فاتنة ، شابة تعبر المروج في طريقها إلى القصر ..

كانت عارية الرأس ، وتنعكس أشعة الشمس على شعرهـــا الذهبي الذهبي لتزيده توهجاً ، كانت تحمل سلة مملوءة بالورود ، وتتمسح في قدميها قطة فارسية اللون .

التفت نحو ستيل مستفسراً ، فقال :

ــ هذه هي المس باترسون .

ــ يا للمسكينة ، يا لها من صورة رائعة ترسمها مع ورودها وقطتها الرمادية ..

سمعت شهقة صديقي ، والتفت نحوه بسرعة لأرى العنان قد أفلت من بين أصابعه ، وكان وجهه ممتقعاً ، فسألته :

ــ ما بك ؟

تمالك ستيل هدوء اعصابه وقال :

ــ لا شيء .. لا شيء !

بلغنا القصر بعد لحظات ، وتبعت صديقي إلى غرفة الجلوس حيث كان يعد الشاي على المنضدة ، واستقبلتني الليدي كار مايكل مرحبة .

وقال ستيل :

ــ ليدي كارمايكل .. صديقي الدكتور كارستيرز .

لا استطيع ان افسر سر نفوري من الأرملة الجميلة التي استقبلتني بترحيب شديد ، وتذكرت إشارة ستيل إلى الدم الشرقي الذي يجري في عروقها .

وقالت الليدي بصوت ناعم :

ـ كان لطفاً منك أن تفكر في الحضور يا دكتور وان تحاول مساعدتنا في محنتنا العظيمة .

تناولت قدح الشاي الذي قدمته في صمت ، ورأيت بعد دقائق الصبية الحسناء التي رأيناها في المروج خارج الغرفة ، وكانت لا تزال تحمل سلة الورد ، غير أن القطة لم تكن معها .

وقام ستيل بواجبات التعارف .

وقالت الصبية الحسناء :

ـ الدكتور كارستيرز .. قال الدكتور ستيل الشيء الكثير عنك .. لدي احساس بأنك سوف تتمكن من مساعدة أرثر المسكين .

كانت المس باترسون شابة رائعة الجمال رغم شحوب خديها ، والدوائر السوداء التي تحيط بعينيها ، وقلت لها مطمئناً :

ـ ارجو ألا تستسلمي لليأس يا عزيزتي ، فحالات فقدان الذاكرة ، او ازدواج الشخصية لا تستمر طويلاً ، وقد يسترد المريض صحته بين دقيقة وأخرى .

هزت الصبية رأسها وهي تقول :

ـ لا أصدق ان هذه حالة ازدواج للشخصية .. ليس هذا هو أرثر بالمرة ، ليست هذه شخصيته ..

وتدخلت الليدي في الحديث قائلة :

ـ يا عزيزتي فيليس .. تناول قدح الشاي ..

أدركت من نظرة ليدي كارمايكل للفتاة أنها لا تميل اليها ، ورفضت المس باترسون قبول قدح الشاي ، وسألتها :

– الن تقدمي طبقاً من اللبن لقطتك ؟

رمقتني الصبية بدهشة وهي تقول :

– القطة ؟!

– القطة التي كانت ترافقك منذ لحظات في الحديقة .

فوجئت بارتطام شيء بالأرض ، واكتشفت أن الليدي كار مايكل أسقطت براد الشاي ، وانسكب الماء الساخن فوق الأرض ، عالجت الأمر بسرعة .

والتفتت فيليس نحو ستيل بعيون متسائلة .. ووقف ستيل قائلا لي :

– ألا تحب أن تلقي الآن نظرة على مريضك ؟

تبعته في الحال ، ورافقتنا المس باترسون ، صعدنا الدرج ، بينما أخرج ستيل مفتاحاً من جيبه قائلا :

– تنتابه الرغبة في بعض الأحيان التجول ، لهذا أغلق الباب عندما أكون خارج المنزل !

فتح لنا الباب ودخلنا ، وكان الشاب يجلس على مقعد بجوار النافذة حيث كانت تتسلل أشعة الشمس الغاربة .

كان الشاب يجلس في منتهى الهدوء وقد استرخت كل عضلات جسمه ، وخيل الي في البداية أنه غير منتبه لوجودنا ، حتى فطنت إلى أنه يراقبنا خلسة ، وخفض بصره عندما التقت عيناه بعيني ، ورمش بعينه ، ولكنه لم يتحرك .

وقال له ستيل بمرح :

– انتبه يا آرثر .. لقد جاءت المس باترسون وأحد أصدقائي

لزيارتك .

* لم يتململ الشاب في جلسته ، رغم أني لاحظت بعد قليل أنه يختالسنا النظرات ، وقال له ستيل :

– هل تريد قدحاً من الشاي ؟

وضع ستيل على المنضدة كوباً من اللبن ، ورمقت صديقي بدهشة .

وابتسم ستيل ، ثم قال :

– شيء غريب .. اللبن هو الشراب الوحيد الذي يلمسه .

بعد قليل ، ودون تعجل ، نهض السير أرثر بتثاقل وسار نحو المنضدة ببطء ، ولاحظت فجأة أن حركاته تتم دون حدوث صوت ، وعندما بلغ المنضدة مدد جسمه ، ووضع إحدى ساقيه أمامه والأخرى خلف جسمه ، ثم تثاءب ..

لم أرَ في حياتي انساناً يتثاءب بتلك الطريقة ، ثم ركز انتباهه على اللبن ، وأحنى رأسه حتى لمست شفتاه السائل ..

أجاب ستيل على نظرتي بقوله :

– لا يستخدم يديه على الاطلاق .. يبدو أنه ارتد إلى طبيعة الانسان البدائي .. أليس هذا غريباً ؟

أحسست بفيليس باترسون تنكمش وهي تلتصق به ، ووضعت يدي على ذراعها لأهدئها ..

انتهى الشاب من لعق اللبن ، ثم مدد ارثر كارمايكل جسده مرة أخرى ، ثم عاد بنفس الخطى البطيئة دون احداث صوت إلى مقعده بجوار النافذة ، ثم كوّر جسمه وهو ينظر الينا في صمت .

قادتنا المس باترسون إلى الخارج وكل جسدها يرتعد ، وقالت بأسى :

- بربك يا دكتور كارستيرز .. ليس هذا أرثر . ذلك الشيء المكور ليس أرثر .

هززت رأسي بحزن قائلا لها :

- يستطيع العقل البشري أن يلعب حيلا غريبة يا مس باترسون .

أعترف اني شعرت بالحيرة ازاء هذه الحالة الغريبة ، ورغم أنه لم يسبق لي أن رأيت أرثر قبل ان تنتابه هذه الحالة الغريبة في طريقة المشي والطرف بعينه ، إلا أنــه ذكرني بانسان أو شيء ، لا استطيع أن احدده !

ساد الهدوء أثناء تناول العشاء ، وعندما انسحبت السيدات سألني ستيل عن رأيي في مضيفتي ، فأجبته قائلا :

- يجب أن اعترف لك انني أحس نحوها بنفور لا أستطيع أن أعلله .. أنت محق من حيث انها من اصل شرقي ، ويجب أن اعترف أيضاً أنها تملك قوة سحرية غامضة .. إنها امرأة ذات قوى مغناطيسية طاغية .

كان ستيل على وشك أن يقول شيئاً ، ولكنه تراجع ..

ثم قال اخيراً :

- إنها مولعة أشد الولع بابنها الصغير !

وبينما كنا نجلس في غرفة الجلوس الخضراء بعد العشاء ، وانتهينا من شرب القهوة ، ونحن نتحدث في مختلف الموضوعات سمعت صوت مواء القطة خارج الباب كأنها تتوسل كي يفتح لها أحدهم الباب ، ولكن احداً

لم يكترث بها ، وحيث اني أحب الحيوانات ، فقد نهضت من مكاني قائلا لليدي كار مايكل :

– هل أسمح للسكينة بالدخول ؟

امتقع وجهها بشكل ظاهر ، ولكنها أومأت لي برأسها .

توجهت إلى الباب وفتحته ، ولكنني لم أجد شيئاً في الخارج ، فقلت :

– أمر غريب . أستطيع ان اقسم أني سمعت مواء القطة !

وبينما كنت أعود إلى مقعدي ، لاحظت ان الجميع يراقبونني عن كثب ، وداخلني احساس بعدم الارتياح ، وذهبنا للنوم في وقت مبكر ، وصحبني ستيل إلى غرفتي ، ثم قال لي :

– هل حصلت على كل ما تريده ؟

– نعم .. شكراً لك .. بهذه المناسبة ، سبق أن اخبرتني أن في هذا المنزل شيئاً غير طبيعي ، ورغم هذا فالمنزل يبدو طبيعياً .

– هل تستطيع ان تقول انه بهيج ؟

– كلا . فالحزن يظلله في الظروف الراهنة .

وقال ستيل باقتضاب :

– طابت ليلتك وأتمنى لك احلاماً سعيدة .

وقد حلمت بالفعل .. حلمت بالقطة البائسة ، واستيقظت من نومي مفزوعاً ، وأدركت فجأة سبب تفكيري في القطة ، فقد كانت القطة تموء خارج الباب ، ولم يكن باستطاعتي أن انام والمواء مستمر .

اشعلت شمعة وتوجهت نحو الباب ، ولكن الممر خارج الباب كان خـــالياً .. وطرأت على ذهني فكرة ، قد تكون القطة محبوسة في

مكان ما ..

كانت نهاية الممر تقع إلى اليسار حيث توجـــد غرفة نوم ليدي كارمايكل ، لذا اتجهت يمينـاً ، وما كدت أخطو بضع خطوات حتى انقطع المواء ، ثم سمعته خلفي ، فاستدرت بحدة لأسمع الصوت من جديد بوضوح عن يميني .

احسست برعدة تسري في بدني ، ربما لمرور تيار هوائي ، وعدت إلى غرفتي .. وعاد الهدوء مرة اخرى ، وسرعان ما استغرقت في النوم حتى الصباح .

* * *

بينما كنت ارتدي ثيابي ، لمحت من النـــافذة الشيء الذي تسبب في ازعاجي اثناء الليل ، كانت القطة الرمادية تزحف ببطء على الحشائش ، وخيل اليّ انها تريد ان تهاجم قطيعاً من الطيور الصغيرة ، ثم حدث بعد ذلك شيء غريب ..

فقد رأيت القطة تسير بين الطيور ويكاد شعرهـا يلمسها ، فلم تفزع الطيور ، ولم استطع ان افهم ما يحدث ، او اجد له تعليـلا مقبولاً ، وظل الموضوع يشغل بالي لدرجة انني اضطررت إلى ذكر هذه الواقعة اثناء تناول الافطار ، وقلت الليدي كارمايكل :

- هل تعلمين ان لديك قطة غير طبيعية ؟

سمعت صوت احتكاك قدح الشاي بالطبق بين يدي فيلبس باترسون

ورأيت شفتيها ترتجفان وانفاسها تتلاحق بسرعة وهي تحملق في وجهي بشدة ، وخيم الصمت برهة ، ثم قالت ليدى كار مايكل بضيق :

- اعتقد انك مخطيء ، لأنه لا توجد قطة في المنزل . ولم تكن لدي قطة قط .

اعتراني الارتباك وحاولت تغيير دفة الحديث بسرعة وانا في دهشة اسأل نفسي :

- لماذا صرحت ليدى كارمايكل بعدم وجود قطة في المنزل ؟ هل هي قطة المس باترسون ولا تعلم ربة المنزل شيئاً عنها ؟ وربما تكون ليدى كارمايكل من المعادين للقطط ..

* * *

كانت حالة المريض على ما هي عليه ، واجريت له في هذه المرة فحصاً كاملا ، واستطعت أن أدرس حالته عن قرب ، وبناء على اقتراحي اتخذت الترتيبات كي يقضي المريض معظم أوقاته مع افراد الأسرة ، وكنت اهدف من وراء ذلك إلى مراقبة الشاب عن كثب دون أن يفطن ، وعسى أن يوقظ روتين الحياة اليومية في نفسه بعض الذكريات ، إلا أن سلوكه ظل دون تغيير .

كان الشاب هادئاً مسالماً وكان يظهر احتراماً شديداً لزوجة أبيه ، أما بالنسبة للمس باترسون فقد كان يتجاهلها تماماً ، إلا أنه كان كثير الحرص على الجلوس في أقرب مكان من الليدي كار مايكل ورأيته

مرة يمسح رأسه في كتفها

شعرت بالقلق أمام هذه الحالة ، وكنت واثقاً أن وراء المسألة سراً لا اتبينه ، وقلت لستيل :

– هذه حالة كثيرة الغرابة .

وقال ستيل :

– ألا تذكرك هذه الحالة بشيء معين ؟

ذكرتني هذه الكلمات بالأفكار التي طافت برأسي في اليوم السابق . كان الغموض يحيط بالمسألة كلها ، فهناك موضوع القطة الرمادية ، والحلم الذي رأيته ..

وذهبت إلى الخادم لأستفسر منه ، فسألته :

– هل تستطيع أن تخبرني شيئاً عن القطة التي أراها ؟

وقال الخادم بأدب :

– القطة يا سيدي ؟

– أ .. ألم يكن هناك قطة ؟

– كان لدى الليدي قطة .. قطة كبيرة .. كان لا بد من التخلص منها للأسف الشديد ، كانت حيواناً جميلاً يا سيدي .

وسألته ببطء :

– هل كانت رمادية اللون ؟

– نعم يا سيدي !

– هل انت واثق أنه تم قتل القطة ؟

– كل الثقة يا سيدي لم تشأ الليدي أن ترسلها للطبيب البيطري

وفعلت ذلك بنفسها .. كان ذلك منذ اسبوع ، والقطة مدفونـة تحت شجرة خشب الزان الكبيرة .

فكرت بعد انصراف الخادم عن سبب تأكيد الليدي كار مايكل انه لم يكن يوجد قط قطة في المنزل ..

وعندما التقيت بستيل سألته :

– ستيل .. اريد أن أوجه اليك سؤالاً . هل رأيت أو سمعت عن قطة رمادية في المنزل ؟

لم تبد عليه الدهشة لدى سماعه هذا السؤال ، وقال :

– سمعت عنها ولكنني لم ارها !

– ولكن في اول يوم عندما رأينا المس باترسون ؟

أخذ يرمقني بنظرات ثابتة ، ثم قال :

– رأيت المس باترسون تسير وحدها في الحديقة .

بدأت أفهم وسألته :

– إذاً .. فالقطة ؟

أومأ برأسه وأجاب :

– أردت أن أرى – دون أن احيطك علماً – ما إذا كنت تسمع ما نسمعه .

– إذاً فأنتم جميعاً تسمعون الصوت ؟

– لم اسمع من قبل عن شبح قطة يحوم داخل منزل !

أخبرته بما علمته من الخادم ، وأعرب لي عن دهشته قائلاً :

– هذه اخبار جديدة بالنسبة لي ، فلم اكن اعرف هذه الحقيقة .

– ولكن ما معنى هذا ؟

هز رأسه قائلا :

– الله وحده يعلم ، ولكنني أقول لك يا كارستيرز إني خائف ، هذا الصوت يحمل معنى التهديد !

وقلت له بحدة :

– التهديد ؟ لمن ؟

– لا استطيع ان اقول !

لم أفهم المعنى الذي يقصده قبل حلول الليل ..

كنا نجلس في غرفة الجلوس الخضراء ، كما كنا نفعل ليلة وصولي عندما سمعنا صوت مواء مرتفع خارج الباب .. ولكنه كان غاضباً في هذه المرة ويحمل لهجة التهديد .

توقف المواء ، فسمعنا صوت مقبض الباب يخشخش بعنف ، كأن مخلب قط يعبث به !

اندفعنا نحو الباب ولكننا لم نعثر على شيء ، وكانت فيلبس ترتعد من الفزع ، بينما حاكى وجه الليدي كارمايكل وجوه الموتى ، كان ارثر وحده هو الذي يتربع في جلسته هادئا كالطفل ، معتمداً برأسه على ركبة أبيه .

وضعت المس باترسون يدها فوق ذراعي وصعدنا السلم ، قائلة لي :

– ماذا يعني كل هذا يا دكتور ؟

– لا نعرف السبب بعد . ولكنني سوف أتوصل لمعرفة السر .. لا تخافي شيئا ، فأنا مقتنع بأنه لا يوجد ثمة خطر يهدد حياتك شخصيا .

نظرت اليّ بارتياب ثم قالت :

- هل تعتقد ذلك حقا ؟

- إني واثق مما اقول .

تذكرت منظر القطة وهي تتمسح برجليها بوداعة ، مما يعني أن التهديد ليس موجها اليها .

* * *

كنت استلقي على السرير لأنام عندما داخلني شعور غامض سبب لي بعض القلق ، وخيل الي انني اسمع خربشة مخالب قط وصوت شيء يتمزق ، قفزت من السرير واندفعت بسرعة نحو الممر ، ورأيت في نفس الوقت ستيل يندفع إلى الممر من الجـــانب الآخر .. كان الصوت صادراً من مكان على يسارنا ..

وقال ستيل بارتياع :

- هل سمعت الصوت يا كاستيرز ؟ هل سمعته ؟

أسرعنا نحو غرفة الليدى كارمايكل ، لم نر شيئا يمر أمامنا ، ولكن الصوت توقف .

والقينا أضواء شموعنا على باب الليدى كارمايكل ، وحدق كل منا في وجه الآخر بدهشة .. وقال ستيل هامسا :

- هل تعرف لمن كان الصوت ؟

أومأت برأسي قائلا :

- مخلب قط يخربش شيئا ويمزقه .

سرت في بدني رجفة بسيطة ، ثم صحت بدهشة وانا أخفض الشمعة التي احملها :

- أنظر هنا يا ستيل .

وكان المقصود بـ « هنا » مقعداً يستند على الحائط ، وكان كساءه ممزقا إلى شرائح بالطول .

فحصنا المقعد عن قرب ، ونظر الي ستيل وهو يقول :

- مخالب قط . لا شك في هذا .

انتقل بصره من المقعد إلى الباب المغلق قائلاً :

- هذا هو الشخص الذى ينصب عليه التهديد الليدى كارمايكل !

لم استطع النوم في تلك الليلة .. فقد بلغت الأمور حداً يتطلب الحركة السريعة ، وكنت اعلم ان شخصا واحداً بيده مفتاح السر ، وازدادت شكوكي في أن الليدى كارمايكل تعرف اكثر مما تصرح به .

ازداد شحوب وجهها صباح اليوم التالي وهي تنزل من حجرتها لتناول الافطار ، وظلت تنظر إلى الطعام دون أن تقربه ، وكنت على ثقة من أن إرادة حديدية هي التي تمنعها من الانهيار ..

وطلبت منها بعد الافطار أن اتبادل معها بعض الحديث قائلا لها :

- ليدي كارمايكل .. لدي أسباب تجعلني أومن أنك تواجهين خطراً داهما :

اجابت بدون اكتراث قائلة :

- أحقا ؟

واكملت حديثي قائلا :

- هنا في هذا المنزل .. شيء موجود يقف منك موقفا عدائيا !

ردت باحتقار :

- اني لا اصدق شيئا من هذا العبث .

وقلت لها بجفاف :

- المقعد الموجود امام غرفتك ، لقد تمزق تماما في الليلة الماضية .

رفعت حاجبيها متصنعة الدهشة وهي تقول :

- حقا ! ربما كان مجرد مزاح سخيف .

وقلت لها :

- ليس الأمر كذلك ، واريد منك أن تصارحيني لمصلحتك !

صمتت قليلا واجابتني :

- اصارحك بأي شيء ؟

قلت لها بلهجة جادة :

- أي شيء يلقي الضوء على الغموض الذي يحيط بالموضوع .

ضحكت وهي تقول :

- إنني لا أعرف شيئاً على الاطلاق .

رغم هذا فقد كنت مقتنعاً بأنها تعرف شيئاً خطيراً لا تريد أن تبوح به ، وان بيدها مفتاح السر الغامض بالنسبة لنا ، ولكنني لم أجد وسيلة لاقناعها بالكلام .

على أي حال ، قررت اتخاذ كل الاحتياطات الممكنة ، مقتنعاً بأن خطراً جسيماً يتهددها .

وقفت مع ستيل بفحص حجرتها في الليلة التاليـة قبل ان تذهب اليها ، واتفقنا على أن نتبادل نوبات الحراسة للممر .

أخذت نوبة الحراسة الأولى التي انقضت دون حادث .

وجاء ستيل في الثالثة صباحاً ليأخذ نوبته ، كنت متعبـاً من أثر السهر في الليلة الماضية ، ومن ثم نمت في الحال .. وحلمت حلمـاً كثير الغرابة .

حلمت ان القطة الرمادية تجلس تحت سريري ، وانها تنظر اليّ متوسلة ثم أدركت من نظراتها أنها تطلب مني أن اتبعها ، فاستجبت لرغبتها وقادتني القطة إلى الجناح الآخر من المنزل ، حيث توجد غرفة من الواضح أنها المكتبة ..

ووقفت القطة على قدميها الخلفيتين وهي تشير بقدميها الأماميتين إلى رف معـين الكتب ، وهي لا تزال ترمقني بتلك النظرات المتوسلة ، ثم بهتت صورة المكتبة والقطة ، وفتحت عيني على نور الصباح ..

انتهت نوبة ستيل دون حادث ، واخبرته الحلم ، وبنـاء على طلبي قادني إلى غرفة المكتبة التي تطابق جميع التفاصيل التي رأيتهـا في الحلم ، واطلعته على المكان الذي كانت القطة تقف فيه ، ولدهشتنا وجدنا مكان احد الكتب خالياً .

وقال ستيل :

ـ انتزع احدهم كتاباً من هذا الرف ..

عندما فحص ستيل موضع الكتاب الناقص قال :

ـ مرحى ! يوجد مسمار خلف الرف ، وقد تمزقت قطعة من الغلاف

وتعلقت بالمسمار .

فحص ستيل قطعة الورق بعناية ، ولم تكن مساحتها تزيد على بوصة مربعة ، ولكن كلمة واحدة كانت ظاهرة عليها لها دلالتها :

– القطة ..

حملق كل منا في وجه الآخر ..

وقال ستيل :

– لقد بدأت رأسي تدور ، هذا فظيع .

– اريد ان اعرف موضوع الكتاب المفقود ، هل تعتقد أنه توجد وسيلة لذلك ؟

قال ستيل :

– ربما يكون اسمه مدرجاً في كتالوج هنا ، او ربما تكون الليدي كارمايكل !

هززت رأسي نفياً وأنا اقول له :

– لن تقول الليدي شيئاً .

– اهذا ما تعتقده ؟

– إنني واثق من ذلك ، بينما نحن نتخبط في الظلام تعرف هي الحقيقة ولأسباب خاصة بها لا تحب ان تتكلم ، وهي تفضل الخطر الفظيع على أن تبوح لنا بالسر .

انتهى اليوم دون وقوع حوادث مما ذكرني بالهدوء الذي يسبق العاصفة وداخلني احساس غريب بأن المشكلة في طريقها إلى الحل ، وأن الحقائق موجودة في انتظار من يكشف النقاب عنها .

ولم يخب ظني ! وبوسيلة شديدة الغرابة !

حدث ذلك بينما كنا نجلس في غرفة الجلوس الخضراء كالعادة بعد العشاء ..

كنا غارقين في الصمت ، عندما جرى فأر صغير على ارض الغرفة .. وفي غمضة عين حدث الشيء .. قفز أرثر كارمايكل من مقعده ، وجرى مقتفياً اثر الفأر .

وكان الفأر قد اختبأ في جحر ، وقبع أرثر على الأرض يتربص الفأر وكل جسده يرتعد في تحفز .

كان شيئاً فظيعــــاً .. ولم يعد يساورني الشك في ذلك الشيء الذي كان منظر الشاب يذكرني به وهو يزحف على الأرض دون أن يصدر صوتاً ..

طردت الفكرة باعتبارها مستحيلة ، ولكنني لم استطع ان ابعدها عن ذهني .

لا أكاد اتذكر مــــا حدث بعد ذلك ، لأن الأمر كله كان يبدو خياليا . الذي اذكره أننا ارتقينا السلم لنذهب إلى غرفنا .

* * *

وقف ستيل امام باب غرفة ليدي كارمايكل ليقوم بنوبــة الحراسة الأولى ، واتفقنا على ان يناديني في الثالثة صباحاً . لم اكن اخشى وقوع شيء لليدي كارمايكل ، فقد سيطرت علي النظرية الغريبة التي تخيلتها ،

وكنت اقول لنفسي إن ما اتصوره ضرب من المستحيل .

تبدد سكون الليل فجأة ، فقد سمعت صوت ستيل يناديني .

واندفعت بسرعة نحو الممر ، ورأيت صديقي يدق بعنف علـــى باب ليدي كارمايكل ..

وقال ستيل بانفعال :

- ولكن !

- إنها هنـــا في الداخل يا رجل !! في الداخل معها ! الا تسمع الصوت ؟

سمعت من وراء الباب صوت مواء القطة التي تموء بوحشية .. ثم سمعت صوت صرخة عالية .. ثم صرخة ثانية .. وتعرفت على صوت الليدي كارميكل ..

وصحت قائلا بحدة :

- الباب ! لا بد من تحطيم الباب وإلا دخلنا بعد فوات الأوان .

دفعنا الباب بأكتافنا بكل ما نملك من القوة ، وتهادى الباب وكدنا نسقط على الأرض .

كانت الليدي كارمايكل ممدة على السرير غارقة في الدم ..

لم أرَ في حياتي مثل ذلك المنظر البشع ، كان قلبهـــا لا يزال ينبض .. ولكن جراحها كانت جسيمة .. لأن جلد العنق كان ممزقا ..

همست وانا ارتجف :

- المخالب !

ضمدت الجراح وغطيتها بضمادة ، واقترحت سراً على ستيل ألا نخــبر

أحداً عن طبيعة تلك الجراح ، خاصة بالنسبة للمس باترسون ، وأرسلت برقية لاستدعاء إحدى ممرضات المستشفى ..

كانت اضواء الفجر تتسلل من النافذة ، ونظرت إلى الأرض المعشوشبة قائلا لستيل :

- ارتد ثيابك لنخرج ، سوف تتحسن حالة الليدي كارمايكل الآن .

ارتدى ستيل ثيابه على عجل وذهبنا إلى الحديقة ..

وقال ستيل :

- ما الذي تريد أن تفعله ؟

- سوف نحفر الأرض نبشاً عن جثة القطة .. يجب أن أتأكد من .

عثرث على جاروف وبدأنا نحفر أسفل شجرة خشب الزان الكبيرة وكللت جهودنا بالنجاح ..

لم تكن مهمة سارة ، فقد ماتت القطة منذ أسبوع ، إلا انني رأيت ما كنت أريد التأكد منه ..

وقلت لستيل :

- هذه هي القطة . نفس القطة التي رأيتها في اليوم الأول لوصولي .

تشمم ستيل الهواء بأنفه .. كانت رائحة اللوز المر لا تزال موجودة .

وتمتم ستيل :

- حامض البروسيك ..

اومأت برأسي ، فسألني بلهفة :

- ما رأيك ؟

- نفس ما يجول بخاطرك ..

لم تكن نظريتي جديدة بالنسبة له ، لأنه فكر في نفس الشيء ..
وتمتم قائلاً :

– هذا مستحيل ! مستحيل ! إنه مخالف لكل القوانين العلميــة والطبيعية ، ذلك الفأر في الليلة الماضية .. أوه .. ولكن هذا غــير معقول ..

– الليدي كار مايكل سيدة بالغة الغرابة ، إنهـــا تملك قوى سحرية غامضة .. ولديها القدرة على تنويم الأشخاص ، عاش أسلافها في الشرق ، ولا ندري أي نوع من القوى استخدمتهـــا للتأثير على شخص كأرثر كارمايكل .. ولا تنس يا ستيل ، أن أرثر لو ظل معتوهاً لا حيلة له ، وظل على دلالته لها ، فإن جميع ممتلكاته تنتقل من الناحية العملية إلى ابنها – الذي اخبرتني أنها تحبه إلى درجة الجنون ، وكان أرثر يستعد للزواج !

– ولكن ماذا سنفعل يا كارستيرز ؟

– لا شيء .. سوف نبذل أقصى الجهد لنقف أمــام رغبة ليدي كارمايكل في الانتقام .

تحسنت حالة الليدي ببطء ، واندملت جروحها بسرعة غير متوقعة ، إلا أن آثار الجراح من المحتمل أن تبقى معها حتى الموت ..

لم أحس من قبل بمثل عجزي الراهن ، فقد كانت القوة التي هزمتنا لا تزال في أوج سيطرتها ، ولم يكن امــامنا سوى انتظار تبدد تلك القوة ..

كنت مصراً على شيء .. لا بد من ابعاد الليدي كارمايكل عن

وولدن بمجرد أن تمنع تلك القوة من مطاردتها ..

وهكذا مرت الأيام !

* * *

حددت يوم ١٨ سبتمبر موعداً لنقل ليدي كارمايكل ، وحدث ما لم نكن نتوقعه يوم ١٤ .

كنت اتناقش في المكتبة مع ستيل حول ليدي كارمايكل ، عندما قدمت إحدى الخادمات بانفعال :

– اسرع يا سيدي ! فقد سقط المستر أرثر في البركة ..

ما كاد يضع قدمه في القارب المسطح حتى اندفع القارب واختل توازنه وسقط في الماء ! فقد شاهدت ما حدث من النافذة .

اندفعت خارجاً من الغرفة وستيل يتبعني .. وكانت فيليس بالباب وسمعت كلام الخادمة ، وجرت معنا وهي تقول :

– لا يوجد مبرر للخوف ، لأن أرثر سباح ماهر .

كان سطح الماء ساكناً بينما ينزلق القارب فوق الماء ، ولكننا لم نعثر لأثر على أرثر .

خلع ستيل سترته وحذاءه وهو يقول :

– سوف اقفز إلى الماء ، وعليك ان تركب القارب الآخر وتبحث في الماء .. ليس العمق كبيراً !

ظللنا نبحث دون جدوى ؛ وكانت الدقائق تتتابع بسرعة ، وعندما

كاد اليأس يستولي علينا ، عثرنا عليه .. وسحبنا الجسد الذي فارقته الحياة إلى الشاطىء .

لن أنسى ما حييت علامات الحزن اليائس الذي ارتسم على وجه فيليس وهي تقول :

– إنه لم .. إنه لم ..

كانت شفتاها ترفضان النطق بالكلمة البشعة .

وقلت لها :

– كلا .. كلا يا عزيزتي .. لا تخشي شيئاً ..

كنت اريد أن اطمئنها واحساسي الداخلي بالأمل ضعيف ، فقد ظل الشاب تحت الماء لمدة نصف ساعـــة ، وطلبت من ستيل ان يسرع إلى المنزل بحثاً عن أغطية دافئة وغير ذلك من الأشياء اللازمـــة . وبدأت أجري بنفسي التنفس الصناعي ، وظللنا نواصل جهودنا مـــا يقرب من الساعة دون ان تظهر على الغريق علامات الحياة ..

طلبت من ستيل أن يأخذ مكاني ، واقتربت من فيليس قـــائلاً لها برقة :

– اخشى أن أخبرك ان الوقت قد فات كي نفعل شيئاً من أجله .

ظلت صامتة لبرهة وجيزة ، ثم ارتمت فجأة فوق الجثة الهامدة وهي تصيح قائلة بيأس :

– رتو ! أرتر ! أعد اليّ يا أرتر .. عد اليّ !

تردد صدى صوتها في السكون ..

وأمسكت يد ستيل فجأة وأنا اقول بدهشة :

- أنظر !

كانت مسحة خفيفة من اللون الأحمر تسري في وجه أرثر ..

تحسست قلبه وصحت بفرح :

- استمر في اجراء التنفس الصناعي ، إن الحياة تدب في جسمه ..

مر الوقت سريعاً ، وفيما يشبه المعجزة ، فتحت العينان ..

عينان آدميتان تشعان بالذكاء .. استقرت العينان على وجه فيليس ، وقال أرثر بصوت ضعيف :

- هاللو فيل ! أهذه انت ؟ كنت افكر أنك لن تأتي قبل الغد ..

فلم تطاوعها شفتاها على النطق ، ولكنهـا ابتسمت له . وادار أرثر بصره حوله في حيرة ثم قال :

- ولكن أين انا ؟ ولماذا أحس بهذا الضعف الشديد ؟

ما الذي حدث لي ؟ هاللو دكتور ستيل !

وأجابه ستيل بقوله وهو شارد اللب :

- كدت تموت غرقاً .. هذا ما حدث !

عبس السير أرثر وقال :

- ولكن كيف حدث ذلك ؟ كنت أسير أثناء النوم ؟

هز ستيل رأسه نفياً ، وقلت :

- يجب ان نعود إلى المنزل !

حلق أرثر في وجهي ، وقامت فيليس بواجبات التعارف قائلة :

- الدكتور كارل ستيرز .. إنه ينزل ضيف عندنا .

ساعدنا أرثر على المشي إلى المنزل ، ولاح عليه أن فكرة مفاجئة

طرأت على ذهنه ، وقال :

- أريد أن أسألك يا دكتور ، هل يعطلني هذا الحادث عن الاستعداد ليوم ١٢ ..

وقلت له ببطء :

- الثاني عشر ؟ تعني الثاني عشر من شهر أغسطس ؟

- نعم .. يوم الجمعة القادم .

وقال له ستيل بجدة :

- اليوم الرابع عشر من سبتمبر .

كان قلق أرثر واضحاً وهو يقول :

- ولكن .. ولكنني كنت أظن أن اليوم هو الثامن من أغسطس ، لا ريب أنني كنت مريضاً .

تدخلت فليبس في الحديث قائلة له بصوتها الرقيق :

- نعم .. كنت فريسة مرض شديد .

قطب أرثر جبينه ، ثم قال :

- إني لا افهم شيئاً ، كنت في صحة جيدة عندما ذهبت إلى سريري في الليلة الماضية ، على الأقل لم يكن ذلك في الليلة الماضية على وجه التحديد ، فقد حلمت ، إني أذكر الأحلام ..

قطب جبينه مرة أخرى وهو يحاول أن يتذكر ، ثم استرسل في حديثه قائلاً :

- شيء . مـــاذا كان ذلك الشيء ؟ شيء مريع .. شيء فعله بي أحدهم ، وكنت غاضبا - يائسا .. ثم حلمت اني تحولت إلى قطـة ..

نعم .. شيء مضحك ، أليس كذلك ؟ ولكن الحلم لم يكن مضحكاً ، كان شيئاً فظيعـــاً ! ولكنني لا استطيع أن أتذكر ، إنه يفلت من ذاكرتي عندما احاول التفكير .

وضعت يدي على كتفه وأنا أقول له :

– لا تحاول التفكير يا سير أرثر .. كن قانعاً بالنسيان .

نظر اليّ في حيرة ، وسمعت فيليس تتنهد بارتيـــاح ، وكنا قد وصلنا إلى المنزل .

وقال أرثر فجأة :

– بهذه المناسبة ، أين ربة المنزل ؟

اجابته فيليس بعد لحظة تردد :

– إنها مريضة !

وقال باهتمام شديد :

– أوه ! يا للأم المسكينة ، أين هي ؟ هل هي في غرفتها ؟

فأجبته :

– نعم .. ولكن من الأفضل ألا تزعجها لأنها ..

وماتت الكلمات على شفتي ، وفتح الباب في تلك اللحظة ، وظهرت الليدي كارمايكل قادمة من الصالة .

كانت نظراتها مركزة على أرثر ، كانت نظرات تكشف عن الرعب ، وكان وجهها أبعد ما يكون عن الآدمية وهي تنظر اليه تلك النظرة ، وارتفعت يدها نحو رقبتها ..

وتقدم نحوها بحنو صبياني قائلا :

- هاللو ! إذاً فقد كنت أنت أيضاً فريسة المرض ؟ إنني أعبر لك عن اسفي البالغ

ارتدت امامه مذعورة وعيناها زائغتان ، ثم اطلقت صرخة عالية وانسحبت بسرعة من الباب المفتوح ، اسرعت اليهـا وانحنيت فوقها ، ثم وجهت حديثي إلى ستيل قائلاً :

- هس ! خذ أرثر إلى غرفته ، ثم عد اليّ .. فقـد لفظت ليدي كارمايكل أنفاسها .

عاد ستيل بعد دقائق وهو يسألني بقلق :

- كيف حدث هذا ؟ ما هو السبب ؟

- الصدمة .. الصدمة لرؤيتهـا أرثر كارمايكل . أرثر الحقيقي وقد ارتد إلى الحياة ، أو تستطيع أن تقول بعبارة أخرى .. إنهـا العدالة الالهية !

تردد ستيل قبل أن يقول :

- تعني !

- حياة بحياة ..

- ولكن !

- أوه .. إنني أعلم أن حـادثاً غريباً لا يمكن تفسيره قد سمح لروح أرثر ان ترتد لجسده ، ورغم هذا فقد تعرض لجريمة قتل .

نظر إليّ بارتياح وهو يقول بصوت منخفض :

- بحامض البروسيك ؟

- نعم .. بحامض البروسيك .

لم نتحدث أنا وستيل قط في موضوع إيماننا ، فمن ناحية كان أرثر يعاني من حالة فقدان الذاكرة وكانت الليدي كارمايكل هي التي مزقت رقبتها في حالة جنون مفاجىء ، وكان ظهور القطة الرمادية مجرد خيال ، إلا انه توجد حقيقتان لا يمكن لعقلي أن يخطئهما ..

الأول تمزيق كساء المقعد في الممر ، والآخر وهو أكثر دلالة ، العثور على كتالوج المكتبة ، وبعد بحث شاق اتضح ان الكتاب المفقود مجلد قديم ببحث في تناسخ الأرواح البشرية وحلولها في أجساد الحيوانات !

شيء آخر . احمد الله على ان أرثر لا يعلم شيئاً ، فقد دفنت فيليس أسرار تلك الأسابيع في صدرها ، وانا على ثقة من أنها لن تكشف ذلك السر لزوجها الذي تحبه حباً شديداً ، والذي اخترق حاجز القبر بناء على دعوة من صورتها .

نداء الاجنحة

- ١ -

كانت اول مرة يسمع فيها سايلاس هامر الصوت في إحدى ليـالي الشتاء في شهر فبراير ..

كان يسير مع ديك بورو بعد تلبية دعوة العشاء من برنارد سيلدون اخصائي الأمراض العصبية .. وكان بورو صامتاً على خلاف عادته .

وسأله سايلاس هامر بفضول عـــا يشغل باله ، وكان رد بورو غريباً حيث قال :

ـ كنت افكر في أن رجلين من بين جميع الرجال في العالم أبعد ما يكونان عن الاحساس بالسعادة . أنا وأنت .

كان وجه الغرابة أن الرجلين على طرفي نقيض ، فقـد كان ديك بورو راعي كنيسة في الوست أند .. بينما سايلاس هـــامر مليونير ذائع الصيت ..

وقال بورو :

– الغريب اني اعتقد انك المليونير الوحيد الذي يشعر بالقناعة .

لزم هامر السكوت برهة ، ثم قال :

– كنت بائع صحف بائساً ، وتمنيت وقتها – ما انعم به الآن – المال ، والراحة وليس القوة . كنت أريد المال لا النفوذ والقوة .. كانت كل امنيتي ان أعيش في رخاء .. وأنا اتفق معك على أن المال لا يشتري كل شيء أريده . لهذا فأنا قانع .. انني رجل مادي يا بورو ، مادي من الداخل والخارج ..

أظهر الضوء الساطع المنبعث من مصباح الشارع الفارق الواضح بين الرجلين ، سايلاس بسترته المبطنة بالفراء ولحمه المكتنز ، وديك بورو بتحوله وزيغان بصره ..

وقال هامر :

– إنه انت الذي لا افهمه ..

ابتسم بورو وقال :

– إنني أعيش وسط الفقر والحاجة والجوع .. وأؤمن بالأشباح التي أراها من حولي ، ولا اعتقد أنك تؤمن بعالم الرؤى والأشباح .

وقال سايلاس هامر بتصميم :

– اني لا أؤمن بشيء لا أراه أو اسمعه .

– تماماً .. وهذا هو الفارق بيني وبينك .. حسناً .. ها قد وصلنا لمفارق الطريق ، سوف أتركك هنا .

تابع هامر المشي وحده ، وكان سعيداً لأنه صرف السيارة وفضل المشي في هذه الليلة . كان الهواء بارداً ، ولكن السترة المبطنة بالفراء

يبعث الدفء في جسمه ..

وقف على الرصيف ينتظر خلو الطريق ليعبر إلى الجانب الآخر ، ورأى سيارة نقل ضخمة تقبل مسرعة ، آثر الانتظار حتى تمر السيارة ، وكان يقف بجواره على الرصيف رجل مخمور رث الثياب .

وسمع هامر صرخة مدوية عندما مرت به السيارة ، ورأى الرجل المخمور في غمضة عين كتلة من اللحم والثيـــاب الممزقة مكومة على الأرض ..

تجمع الناس ، وجاء شرطيان أحاطا بالسائق . ولكن عيني هامر ظلتا مركزتين على كتلة الحطام البشري الملقاة على الأرض ، والتي كانت لرجل .. انسان مثله ، وسرت في بدنه رجفة قوية .

سمع صوت احد المارة بجواره يقول له :

- لا تلق اللوم على نفسك يا سيدي .. لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً من أجله ، لقد كان محكوماً عليه بالموت على أي حال .

حلق هامر في وجه محدثه .. لم تخطر على باله قط فكرة انقـاذ الرجل .. لو أنه حاول بغباء أن يفعل ذلك فربما كان في هذه اللحظة ، ابتعد عن الزحام وبدنه لا يزال يرتعد من الرعب ..

كان لا بد له من الاعتراف بينه وبين نفسه أنه خائف .. مذعور من الموت .. الموت الصارم الذي ينقض فجأة ولا يفرق بين الغني والفقير .

أسرع خطاه ، ولكن الخوف ظل في داخله يبعث في بدنه البرودة والرعدة .. تعجب من [illegible] ، فهو يعرف أنه ليس جبـاناً بطبيعته ..

وفكر في أنه [illegible] سنوات لم يكن يعرف هذا الخوف ، لأن



الحياة وقتها لم تكن حلوة ، نعم .. هكذا كان الحال ، فقد كان حب الحياة هو السر ، كان تعلقه بالحياة في ذروته - ولم يكن يهددها سوى خطر واحد : الموت .

استدار نحو ممر ضيق بين التلال كي يختصر الطريق إلى الميدان الذي يقع فيه بيته الحافل بالكنوز الفنية ، وبدأ صخب الشارع العمومي من خلفه يخفت ، وكان وقع أقدامه هو الصوت الوحيد الذي يعكر سكون الليل ، ثم طالعه بعد قليل صوت جديد من الأمـــام ، ورأى رجلا يستند على الحائط وهو يعزف الناي ، إنه واحد من قافلة الموسيقيين العديدين الذي يجوبون الشوارع ..

ولكن لماذا اختار مثل هذا المكان الغريب ؟ ربمـا ليتجنب رجال الشرطة ..

انقطع حبل تفكيره فجأة عندما اكتشف أن الرجل مبتور الساقين وقد أسند عكازيه على الحائط بجواره ، ورأى كذلك أن الناي الذي يعزف عليه الرجل آلة موسيقية غريبة ، وأن النغمات التي تصدر عنها أعلى من نغمات أي ناي آخر !

استمر الرجل في عزفه دون أن يحظى من هامر بالاقتراب نحوه .. وكانت رأسه مرتدة وراء كتفيه كأنما رفعها السحر الذي ينطلق من نايه ، وأخذت الأنغـــام تتعالى بوضوح ومرح .. ويرتفع صوتهـا أعلى وأعلى ..

كانت نغمة غريبة .. لم تكن نغمة على الاطـــلاق ، كانت جملة واحـــدة تختلف عن لحن كان « رينزي » ، ويتكرر اللحن المرة تلو

الاخرى .. ويعلو الصوت في كل مرة عن سابقه ، ولكنه يتميز في كل مرة بحرية اكبر ..

لم يكن اللحن شبيهاً بأي لحن آخر سمعه هامر من قبل ، كان شيئاً غريباً ملهماً يتصاعد إلى السماء ..

تشبث هامر بدعامة بارزة في الجدار بجانبه ، وكان واعياً لشيء واحد . أن يمسك الدعامة بكلتا يديه لكي تظل قدماه على الأرض .

تنبه فجأة لتوقف الموسيقى ، ورأى الرجل المشوه يمسك عكازه ، بينما هو سايلاس هامر يتشبث بدعامة الجدار خشية ان تحلق به الموسيقى فوق الأرض .

ضحك هامر لهذه الهواجس الغريبة .. يا لها من فكرة مجنونة ! لم ترتفع قدماه عن الأرض ، ولكن يا لها من هلوسة !

أفاق هامر على صوت ارتطام عكازي الموسيقار بالأرض ، وتابع الرجل بنظراته حتى ابتلعه الظلام ..

يا له من انسان غريب !

استأنف هامر سيره ببطء ، ولكنه لم يستطع ان يمحو من ذاكرته الاحساس الغريب بأنه كان يوشك ان يحلق فوق الأرض ، وغير هامر رأسه واستدار ليتبع الموسيقار ، وكان واثقاً من انه سوف يلحق به ، وصاح بمجرد أن لمح الرجل :

– هاي ! انت يا هذا .. لحظة واحدة .

توقف الرجل حتى لحق به هامر ، وسقط ضوء مصباح الشارع على

وجهه .. حبس هامر انفاسه مدهوشاً ، فقد كان وجه الرجل من أجمل الوجوه التي رآها المليونير طوال حياته .. وكان في اوج الشباب والقوة ، ووجد هامر صعوبة في بدء الحديث ..

ثم قال بتردد :

- استمع اليّ .. أريد ان اعرف اللحن الذي كنت تعزفه .

ابتسم الرجل .. وخيل لهامر ان العالم يرقص مرحاً مع تلك الابتسامة ؛ وقال الموسيقار :

- إنه لحن قديم .. قديم للغاية ، ربما عمره بضعة قرون !

كانت نبرات صوته شديدة الوضوح ، ولكنه لم يكن انجليزياً ، ولم يستطع هامر أن يحدد جنسيته ، فسأله :

- لست انجليزياً ؟ من أي بلاد جئت ؟

ابتسم الرجل مرة اخرى ابتسامة عريضة وقال :

- جئت عبر البحر يا سيدي ، جئت منذ زمن طويل ، منذ زمن طويل جداً .

فسأله هامر :

- لا شك أنك اصبت في حادث ؛ هل وقع الحادث مؤخراً ؟

قال الرجل بهدوء :

- كان ذلك خيراً ، فقد كانتا شريرتين !

- كان حظاً سيئاً ان تفقد كلتا ساقيك .

أسقط هامر شلناً في يد الرجل وأدار له ظهره وهو يفكر فيما قاله

الرجل : « كانتا شريرتين »

وبدت الكلمات غريبة ، وظل هامر يفكر فيهـا بعد وصوله إلى منزله ، وعبثا حاول ان يطرد الفكرة عن خاطره ..

رقد في السرير ولم يطرق النوم أجفانه حتى دقت الساعة الواحدة ، دقة واحدة ، ثم خيم الصمت .. الصمت الذي قطعه صوت مـــألوف .. أحس هامر بضربات قلبه تزداد سرعة . كان صوت الرجل في الممر يعزف على الناي ..

كان الصوت قادما من بعيد ..

كانت نفس النغمة .. وكان اللحن يتردد بشكل ساحر ..

وهمس هامر لنفسه :

– إنه خارق كأن له أجنحة !

ازداد اللحن وضوحا وهو يرتفع اكثر واكثر ، كل موجة تعلو على سابقتها ، وهامر يحلق معها . لم يحاول أن يمنع نفسه ، وأخـذ يحلق أعلى وأعلى يداخله احساس بالانتصار والتحرر ..

وظل هامر يرتفع والنغمات تعلو وتعلو حتى تجاوزت حدود الصوت البشري ، ومع هذا فقد استمرت في الارتفاع ، هل تصل إلى الهدف النهـــائي ..

الكمال المطلق في الارتفاع ؟

كان شيء يجذب هامر إلى أسفل .. شيء كبير وثقيل .. يجذبه باصرار ليهبط ..

ظل هامر يحدق في النافذة المواجهـــة له مبهوراً ، وهو يتنفس بصعوبة وألم ..

مد ذراعه أمامه واحس بها تؤلمه .. واحس بنعومة الفراش تخزه ، وبالستائر الثقيلة المسدلة على النافذة تحجب عنه الهواء والنور ، وأن السقف يجثم على انفاسه ..

أحس بالضغط والاختناق ، وتقلقل قليلا في فراشه ، وخيل اليه أن ثقل جسمه هو اكثر الأشياء التي تضغط عليه !

- ٢ -

- اريد ان استشيرك يا سيلدون .

دفع سيلدون مقعـــده قليلا إلى الوراء ، كان يتساءل عن سر هذه الدعوة على العشاء ، فلم يكن قد التقى بهامر منذ تلك الليلة في الشتاء ، وقال المليونير :

- إنني قلق .. قلق على نفسي !

ابتسم سيلدون وهو يقول :

- ولكنني أراك في احسن حال .

- أ .. لدي احساس بأنني في الطريق إلى الجنون !

أرهف الطبيب اذنيه باهتمام ؛ ثم قال بهدوء :

- ما الذي يجعلك تفكر في هذا ؟

- شيء حدث لي لا يمكن تفسيره أو تصديقه ، ونظراً لأنه لا يمكن أن يكون حقيقيا فلا بد اني جننت .

وقال سيلدون :

- خذ حريتك وحدثني عن ذلك الشيء ..

بدأ هامر بقوله :

- إنني لا اؤمن بالأشياء الخارقة للطبيعة ؛ ولكن هـذا الشيء ..

حسنا .. من الأفضل ان اروي لك القصة من البداية .. بدأت القصة في إحدى ليالي الشتاء بعد ان تناولت العشاء معك !

روى له هامر الأحداث التي مرت به في رحلة العودة ؛ واضاف إلى ذلك قوله :

– كانت تلك هي البداية ؛ اما احساسي فلا أستطيع أن اصفه لك بدقة ؛ ولكنه شيء رائع ! يختلف عن اي شيء تراه في الأحلام ؛ وقد استمر الحال منذ ذلك اليوم .. ليس كل ليلة ولكن بين الحين والحين .. الموسيقى والاحساس بالصعود .. التحليق في الفضاء ، ثم الجذب بعنف لأهبط إلى الأرض ، ثم ما يعقب ذلك من الألم .. الألم الذي تشعر به في أذنيك وأنت تهبط من جبل شاهق الارتفاع ويصاحب ذلك الاحساس الفظيع بالثقل ، وكأن شيئاً يضغط عليك ويخنقك .

سكت هامر برهة ثم أردف يقول :

– يعتقد الخدم انني جننت بالفعل .. لم أعد اطيق السقف والجدران ، وطلبت منهم أن يعدوا لي مكاناً في سطح المنزل لا تظلله سوى السماء ، عارياً من الأثاث والسجاجيد ، أو أي شيء يسبب الاختناق ..

ورغم هذا فإن احساسي بوجود المنازل الأخرى من حولي يسبب لي الضيق ، إن الريف هو الذي أريده حيث أستطيع أن أتنفس بحرية ، والآن ما هو رأيك ؟ هل لديك تفسير لما يحدث ؟

قال سيلدون بعد تفكير :

ـ أ . نعم .. لدي اكثر من تفسير .. ربما تكون قد نومت تنويماً مغناطيسياً أو انك نومت نفسك ، وقد حدث لأعصابك بعض الخلل ، أو ربما يكون مجرد حلم !

هز هامر رأسه قائلاً :

ـ لا يجدي واحد من التفسرين

ـ هنالك تفسيرات أخرى ، ولكنها قد لا تكون مقبولة بصفة عامة !

ـ إني على استعداد للاستماع اليها .

ـ هنالك أشياء لا نجد لها تفسيراً .

قال هامر :

ـ وبماذا تنصحني أن أفعل ؟

أجاب سيلدون بهدوء :

ـ أشياء كثيرة .. أن تغادر لندن مثلاً وتذهب إلى الريف فربما توقفت الأحلام ..

قال هامر على الفور :

ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك لأنني لا أستطيع الاستمرار بغير هذه الأحلام !

ـ آه ! هذا ما تخيلته .. تحدث مع الرجل حتى ينتهي هذا السحر !

هز هامر رأسه ..

فسأله الطبيب :

ـ لماذا ؟

ـ لأنني خائف !

ـ لا تؤمن بذلك إيماناً أعمى ، ذلك اللحن الذي تبدأ معه كل هـذه المتاعب ، هل تستطيع أن تصفه لي ؟

همهم هامر باللحن والطبيب يصغي اليه ، ثم قال :

ـ إنه قريب الشبه من لحن .. ريتزي .. فيـــه الاحساس بارتفاع ، ولكنني لا أحلق في الفضاء عندما استمع اليه !

ـ هل يتوقف اللحن ؟

ـ كلا .: كلا إنه يتصاعد في كل مرة استمع اليه ، لا أستطيع أن أعبر بالكلمات عما احس به .. إني احس في كل مرة انني ابلغ نقطة معينة تحملني اليها الموسيقى ، ليس مرة واحدة ، وإنما في موجـــات متلاحقة ، وعندما أصل إلى الذروة حيث لا ارتفاع بعد ذلك ، يبدأ الجذب إلى أسفل .. إنها ليست نقطة في الواقع وإنمـا حالة .. ليست شيئاً جسمانياً .. هنالك احساس بالضوء ثم بالصوت .. ثم باللون ، كل هذا في غموض ودون شكل واضح ، يبدأ الضوء في الظهور ثم يزداد وضوحاً ، ثم يظهر الرمل ، بقع كبيرة من الرمل المائل إلى الحمرة ، ثم تبدو هنـا وهناك خطوط مستقيمة من الماء مثل القنوات .

قال سيلدون باهتمام :

ـ القنوات ! هذا مثير . ارجوك أن تستمر .

ـ ولكن هذه الأشياء لا تهم .. الأشياء الحقيقية هي التي لا أستطيع أن اراها وإنما اسمعها ، إنه صوت يشبه حفيف الأجنحة .. كأن شيئاً رائعاً لا يدانيه شيء آخر .. ثم يجيء آخر رائع .. لقد رأيتهـا ..

رأيت الأجنحة !

– كيف كانت تلك الأجنحة .. أهي لرجال - ملائكة ، طيور ؟

اجاب هامر مفكراً :

– لا ادري . لم استطع تمييزها ، ولكنني ميزت لونها ، لون الأجنحة إنه لون رائع !

– لون الأجنحة ؛ ماذا يشبه ؟

قال هامر بضيق ·

– كيف استطيع ان اخبرك ؟ كأنك تطلب مني ان اصف اللون الأزرق لشخص أعمى ؛ إنه لون لم تره من قبل .. لون الأجنحة !

– حسناً .. وبعد ؟

– هذا هو كل ما لدي .. فيا عدا أنني كنت أحس بمزيد من الألم في كل مرة ؛ إني مقتنع بأن جسمي لا يفارق السرير رغم انني لا أحس بوجود جسمي .. لماذا أحس بكل ذلك الألم إذاً ؟

هز سيلدون رأسه في صمت ..

وقال هامر :

– اني أريد النور والهواء والفضاء ، وفوق كل ذلك مكاناً اتنفس فيه ! اريد الحرية !

– اي الأشياء كان لها معنى خاص لديك ؟

– هذا أسواء ما في الأمر .. الراحة والرفاهية والمتعة ، ويبدو أن هذه كلها تجذب نحو الجانب المضاد للأجنحة .. إنه صراع مستمر بينهما ولا أدري كيف ينتهي هذا الصراع .

كان سيلدون يستمع في صمت وهو يتساءل : أهي احلام ام هلوسة ، ام هل هي أشياء حقيقية ؟ وكيف يحدث ذلك لرجل مادي مثل هامر الرجل الذي يعشق الجسد وينكر الروح ؟

وقال الطبيب في النهاية :

– لا يوجد حل سوى ان تصبر لترى ما سيحدث !

– هـذا يعني انك لا تفهم الموقف .. هذا الصراع يمزقني .. انني اتمزق بين ..

– بين الجسم والروح ؟

وعندما توقف عن الكلام قال هامر :

– ربما انني لا استطيع ان اتحرر ..

– لو اني كنت مكانك لذهبت لأبحث عن ذاك الرجل . .

عندما عاد سيلدون إلى بيته حدث نفسه قائلاً :

– القنوات ؟ اني لفي دهشة !

- ٣ -

استيقظ هامر في صباح اليوم التالي عازماً على البحث عن الرجل المبتور الساقين ..

كان يخشى ان يكون الرجل قد تبخر من الوجود ، ولكنه عثر عليه في الممر الضيق ، وكان الموسيقار قد ترك آلته الموسيقية والعكازين بجوار الحائط ، وانشغل في رسم لوحات بالطبشور الملون على أرض الشارع ..

كان قد انتهى لتوه من رسم لوحة لأشجار تتمايل أمام بركة ؛ وكانت اللوحة تكاد تنبض بالحياة .

فسأله هامر بانفعال :

ـ من انت ؟ اخبرني بحق السماء من أنت ؟

استمر الرجل في الرسم ؛ وبخطوط قوية سريعة رسم لوحة لرجل فوق صخرة يعزف على الناي .. رجل كثير الوسامة ورجلي ماعز ..

وبحركات سريعة رأى هامر الرجل في اللوحة لا يزال جالساً فوق الصخرة إلا أنه مبتور الساقين .

رفع الرسام رأسه قائلا :

ـ لقد كانتا شريرتين !

حلق هامر بدهشة في الوجه .. كان اجمل وانقى بكثير من ذلك الموجود في اللوحة ..

غادر هامر المكان بسرعة وهو يهمس لنفسه :

ـ هـذا مستحيل .. اني مجنون .. أحلم !

ذهب إلى الحديقة حيث تجلس بعض المربيات مع الأطفـــال ؛ بينما يسترخي على الحشائش بعض الرجال المتسكعين .. ورغم انه كان يشعر بالاحتقار عندما يسمع كلمة :

ـ متسكع ..

إلا أنه حسد المتسكعين في تلك اللحظـة ؛ لأنهم يفترشون الأرض الخضراء تحت السماء ؛ وهم احرار يتنفسون دون قيود ..

ومضت في ذهنه فكرة .. إنها الثروة التي تقيد حركاته ؛ كان يعتقد ان المال هو اقوى سلاح على وجه الأرض ؛ ولكنه ادرك الآن ان الثروة قيد يشد قدميه إلى الأرض .. وانه يتمزق نتيجة الصراع الداخلي في نفسه بين قوتين : المال ، وحب الثروة ، وبين مـا يسميه : نداء الأجنحة ..

وبينما كان الواحد يقاتل في ضراوة من اجل البقاء ، كان الآخر ينظر إلى تلك الحرب بازدراء ويطلق نداء . صيحة ترن في أذنيه .. كان يسمعها بوضوح تقول له :

ـ لا تستطيع أن تتصالح معي ، لأني أحلق عالياً فوق كل الأشياء إذا أردت أن تتبعني فلا بد أن تتحرر من كافة القوى التي توقعك في

العبودية ، لا أحد يستطيع أن يتبعني غير الأحرار !

وصاح هامر قائلاً بصوت مسموع :

– كلا .. كلا لا أستطيع .

تطلع الناس في دهشة إلى ذلك الرجل الضخم الذي يحدث نفسه .

هكذا كانت التضحية مطلوبة منه ، التضحية بأعز شيء لديه ، التضحية بجزء من نفسه ، وتذكر الرجل المبتور الساقين .

- ٤ -

فوجىء القس ديك بورو بصديقه المليونير في الارسالية ، فسأله عما أتى به إلى ذلك المكان .

وكانت دهشة القس أشد عندما علم أن هامر قد جـاء ليخبره أنه كان مشغولاً خلال الأسبوعين الماضيين بالاتصال بالمحامين لاتخاذ الاجراءات اللازمة التنازل عن كل ثروته ، وإقامة بورو وصياً عليهـا ينفقها في وجوه الخير التي يشير اليها في مواعظه ..

وسأله القس بدهشة :

- كل ثروتك ؟ لم تبق لنفسك شيئاً ؟

ضحك هامر وهو يقول :

- استبقيت لنفسي بنسين !

انسحب هامر تاركاً القس في حيرته ، ومضى في طريقه خـــارج الارسالية وهو يشعر براحة نفسية ، وهمس لنفسه :

- أصبحت لا أملك شيئاً !

أحس الآن بالخوف . الخوف من الفقر والجوع والبرد .. ولكنه أحس بنفس الوقت براحـة الضمير .. والتحرر من كل القيود التي كانت تجثم على أنفاسه .

كانت رياح الخريف الباردة تبعث البرودة في جسده ، واحس هامر بالجوع ، فقد نسي أن يأكل شيئاً قبل خروجه ..

وجد هامر نفسه امام إحدى محطات الانفاق ، وقرر أن يستخدم البنسين في جيبه ليستقل القطار إلى الحديقة التي كان يسترخي فيها المتسكعون .. سوف يهبط إلى النفق المظلم ليخرج من الجانب الآخر ، إلى النور والخضرة ..

حمله المصعد بسرعة إلى باطن الأرض .. كان الهواء ثقيلاً ، ووقف في اقصى طرف من رصيف المحطة بعيداً عن الناس ، لم يكن بالقرب منه غير صبي يجلس على مقعد في فتور ، وسمع صوت القطار يدوي وهو يقترب داخل النفق من المحطة ، ثم حدث ما حدث في سرعة البرق ..

نهض الصبي استعداداً لركوب القطار ، ولكن قدمه زلت وسقط فوق القضبان ..

تزاحمت مئات الأفكار في عقل هامر ، تذكر كومة اللحم والثياب الرثة تحت عجلات سيارة النقل ، وكلمات الرجل الذي قال له :

ـ لا تلق اللوم على نفسك .. لم يكن باستطاعتك أن تفعل شيئا من أجله .

كانت امامه ثانية واحدة يقرر فيها ما يفعله ، وكان يعرف أن الخوف في أعماقه لم يخفت .. كان يشعر برعب قاتل . هل يوجد أدنى أمل ؟

تطلع المشاهدون في دهشة شديدة إلى المشهد الغريب الذي يقع أمام أبصارهم .. غلام يسقط فوق القضبان ؛ ورجل يلقي بنفسه في سرعة البرق

لكي ينقذ الصبي ..

رفع هامر بسرعة الصبي بين ذراعيه والقاه فوق الرصيف .. كان القطار يندفع نحو المحطة ولا امل للسائق في التوقف في الوقت المناسب .. وكان بدن هامر يرتعد ؛ ولكنه كان يطيع طـــاعة عمياء صوت الروح الغريبة التي تناديه طالبة منه التضحية ..

وفجأة سكن الرعب الذي يسري في جسمه .. فلم يعد العالم المـادي يقيد حركته .. لقد تحرر من كل القيود ..

تحرر هامر من كل القيود التي كانت تشد قـــدميه وتعطيه الشعور بالعبودية والأسر .. وخيل اليه في لحظة خاطفة انه يسمع روحا مبتهجة تناديه .. ثم سمع الصوت يزداد وضوحا واقترابا .. يغطي على كل الأصوات الأخرى .. كان صوت حفيف الأجنحة تلتف حوله وتحيطـه باحساس من الراحة والسكينة ..

وفاة المهرج

سار المستر ساترويت متمهلاً في شارع بوند ستريت ، مستمتعاً بضوء الشمس ، في طريقه إلى معرض هاركستر للصور الفنية ، حيث كان الرسام العبقري الجديد فرانك بريستو يعرض أول مجموعة من لوحاته الفنيـة .

وفيما هو يدخل إلى ردهة المعرض ، حيـــاه أحد المشرفين على المعرض قائلاً :

- طاب صباحك يا مستر ساترويت ، لقد كنا نتوقع حضورك يوماً بعد آخر .. ولا ريب انك ستعجب بهذا الفنـــان الجديد أشد الاعجاب

ومضى المستر ساتروبت إلى قاعة العرض الواسعة المستطيلة التي علقت اللوحات المعروضة على جدرانها الأربعة . وراح في اعجاب واضح يتأمل اللمسات الفنية الأصيلة البادية في خطوط كل لوحة على انفراد .

وتوقف برهة أمام لوحة تمثل جسر وستمنستر بمـا عليه من مارة وسيارات خاصة وعامة ، ومركبات مختلفة الأنواع ، وكان الفنان قد

أطلق على هذه اللوحة اسم « مستعمرة النمل » .

ثم تحرك إلى اللوحات الأخرى حتى توقف أمام لوحة جعلته يتسمر في مكانه .

كانت اللوحة تسمى « وفاة المهرج » ، وكانت أرضيتها ، أو الجزء الأمامي منها ، تمثل أرضية شرفة كبيرة ذات بلاط من اللونين الأبيض والأسود ، وفي وسطها رقدت جثة مهرج ميت في ملابسه الحمراء والسوداء ، وقد مد ذراعيه على جانبيه .. وفي الجزء الخلفي من اللوحة جدار جانبي للشرفة الكبيرة ، فيه نافذة زجاجية ، ومن وراء النافذة بدا وجه ينظر بهدوء إلى « المهرج الميت » .

وأعجب ما في الصورة أن التشابه كان واضحاً بين الوجه الذي كان ينظر من وراء النافذة وبين وجه « المهرج الميت » .. وكأنما أراد الفنان أن يرمز لروح الميت حين ترقب الجسد بعد انفصالها عنه .

ولكن الشيء الذي أثار انفعالات المستر ساترويت ، أنه عرف ، أو خيل اليه أنه عرف « وجه المهرج الميت » . لأنه كان يشبه إلى حد كبير وجه صاحبه ذلك الرجل الخفي ، المستر كوين ، الذي كان يظهر في حياته ويختفي في اوقات معينة .

وقال لنفسه متعجباً :

– إنني لست مخطئاً بالتأكيد ! فما معنى هذا ؟

ذلك أن تجارب المستر ساترويت أكدت له ان كل مرة يرى فيها المستر كوين ، لا بد وان يكون وراء ظهوره سبب معين .

وكان ثمة شيء آخر أثار اهتمامه باللوحة ..

ذلك أنه عرف المكان الذي صوره الفنان بريشته ، ومن ثم عاد يقول لنفسه :

– إنها الشرفة الكبيرة في قصر اللورد شارنلي ..

عجباً ! عجباً !

وبعد ان شاهد جميع اللوحات المعروضة ، ذهب إلى مدير المعرض ، المستر كوب ، وقال له بعد أن تبادل معه التحية .

– بودي أن اشتري اللوحة رقم ٣٩ ، إذا لم يكن أحد قد سبقني إلى شرائها !

فقال المستر كوب بعد أن راجع دفاتره :

– أوه ، لقد عرفت كيف تختار يا مستر ساترويت .. كلا لم يشترها أحد ، إنها فعلا تحفة ، وأعتقد انك بعد عام ستجد من يعرض عليك ثلاثة أضعاف ثمنها .

– هذا ما تقوله لي دائماً يا مستر كوب ، اليس كذلك ؟

فابتسم الرجل وقال :

– وهل تراني خدعتك ذات مرة ؟ ألم يصدق حدسي دائمـاً ؟

– نعم ، نعم اعترف بهذا ، حسناً سأكتب لك الآن صكاً بثمن اللوحة .

– إنك لن تندم على هذا ، فإن بريستو فنان سيخلد التـاريخ اسمه !

– اهو لا يزال في مرحلة الشباب ؟

– إنه في السادسة أو السابعة والعشرين من عمره .

– إني ارغب في مقابلته ، ولعله يقبل دعوتي له لتناول العشاء معي الليلة .

فأومأ المستر كوب برأسه وقال :

– سأعطيك عنوانه ، ولا ريب أنه سيبتهج بهذه الدعوة لأنك معروف للجميع كواحد من انصار الفن والفنانين .

فقال المستر ساترويت وهو يهم بالانصراف :

– إنك تمتدحني أكثر مما استحق ..

وقاطعه المستر كوب فجأة قائلا :

– ها هو ذا قد حضر ، لسوف أقدمك له فوراً .

ونهض عن مكتبه ، وأخذ يقدم المستر ساترويت إلى الفنان الشاب الوسيم ذي الجسم الكبير والوجه الحالم ..

وبعد التعارف ، قال المستر ساترويت :

– كان لي الآن شرف شراء لوحتك الرائعة « وفاة المهرج » .

فابتسم الفنان الشاب وقال :

– اعتقد أنك لن تخسر كثيراً من شراء هذه اللوحة ، أعتقد أنها جيدة ، وإن كان لا ينبغي أن أقول هذا .

– بل هذه هي الحقيقة يا مستر بريستو ، وإني كثير الأعجاب بلمساتك الفنية ، وإني لأرجو أن تشرفني بقبولك دعوتي لتناول العشاء معي الليلة إذا لم تكن مرتبطاً بوعد سابق .

– الواقع اني غير مرتبط بوعـــد الليلة . ومن ثم يسرني ان

أقبل دعوتك .

- إذاً هل انتظرك الساعة الثامنة مساء ، هذه بطاقتي وعليها العنوان !

- اوه .. حسناً وشكراً جزيلاً .

وقال ساترويت لنفسه وهو ينصرف :

« إنه شاب عبقري لطيف .. ولكنه كما يبدو خجول لا يعرف قدر نفسه »

* * *

وصل فرانك بريستو في الثامنة وخمس دقائق مساء حيث وجد لدى المستر ساترويت ضيفا آخر هو الكولونيل مونكتون ومضى الثلاثة فوراً إلى مائدة العشاء حيث كان ثمة مقعد رابع خال قال عنه المستر ساترويت :

- إنني انتظر حضور صديق لي يدعى المستر كوين .. هارلي كوين ، هل تعرفه يا مستر بريستو ؟

فاضطرب وجه الفنان الشاب وقال مرتبكا :

- الواقع انه هو الذي اوحى اليّ بفكرة لوحة « وفاة المهرج » وكان طبيعيا ان يأتي الشبه مماثلا بينه وبين وجه المهرج .

وكان الكولونيل مونكتون يتأمل الفنان الشاب كأنه « نوع جديد من الأسماك النادرة » ، هذا بينما كان المستر ساترويت يقول :

– الواقع أن هذا الشبه هو الذي حفزني على شراء اللوحة ، كما انني اعرف المكان الذي صورته فيه ، إنها الشرفة الكبيرة في قصر اللورد شارنلي اليس كذلك ؟

فلما اومأ الفنان برأسه ، استطرد ساترويت يقول :

– لقد نزلت في ضيافة اللورد شارنلي بضع مرات قبل مأساته ، ولعلك تعرف بعض افراد أسرته !

فقطب بريستو جبينه وقال :

– يؤسفني أني لا اعرف احداً في هذه الأسرة ، ولكن المستر كوين هو الذي اقترح علي رسم هذه الصورة هناك !

وبعد لحظات من حديث عادي ، قال المستر ساترويت :

– إن قصر شارنلي من القصور التي تستهوي الناس لزيارتها ، وقد زرته مرة واحدة بعد المأساة .

وقال بريستو :

– نعم .. إنه قصر تاريخي يحيط به جو من الغموض والأسرار .

وقال الكولونيل مونكتون :

– يقال إن فيه شبحين لا شبحا واحداً ، شبح الملك شارل الأول يجوب المكان وهو يحمل رأسه تحت ذراعه ، ولا ادري لماذا ! وشبح السيدة ذات الوعاء الفضي التي يقال انها ترى دائما بعد وفاة أفراد اسرة شارنلي .

وغمغم بريستو متهكما :

– خرافات !

وقال المسار ساترويت بسرعة :

- إنها أسرة سيئة الطالع ، فقد مات اربعة من حاملي اللقب ميتة بشعة ، واخيراً مات اللورد شارنلي منتحراً .

وقال الكولونيل في أسى :

- كانت مأساة مؤلمة ، وكنت هناك عندما وقعت المأساة .

وقال ساترويت :

- آه .. نعم ، كم مضى عليها الآن ؟ نحو اربعة عشر عاما ولا يزال القصر مهجوراً منذ ذلك الحين .

وقال الكولونيل :

- إني لا اعجب لهذا ، فلا ريب ان المأساة كانت صدمة قاسية على عروس اللورد الشابة التي لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة ، والتي لم يكن قد مضى على زواجها باللورد أكثر من شهر ، وكان اللورد قد عاد معها بعد شهر العسل ، وأقام حفلة تنكرية راقصة احتفـالاً بهذه المناسبة ، وبينما المدعوون يتوافدون ، إذا باللورد الشاب يدخل إلى الغرفة المسماة « قاعة السنديان » ويغلقها على نفسه ، ثم ينتحر . وكان الحادث غريبا لا يكاد يصدقه احد .. آه ماذا تقول ؟

والتفت بسرعة نحو اليسار ، ثم نظر إلى المسار ساترويت .. وضحك وهو يقول معتذراً :

- يبدو ان ذكرى المأساة أثرت على اعصابي فقد خيل اليّ أني سمعت شخصا يحدثني من هذا المقعد الخالي !

وتابع حديثه الأول قائلا :

– كانت الصدمة عنيفة على عروس الورد ، اليس شارنلي .. وكانت يومذاك من اجمل الفتيات اللاتي يمكن ان يراهن الانسان في اي مكان .. كانت من النوع الممتلىء بحب الحياة ؛ وبالرغبة في الارتواء منها ؛ ولكنها الآن تعيش كالشبح .. إنني لم ارها منذ اعوام ؛ واعتقد انها تعيش خارج البلاد معظم الوقت .

– والابن ؟

– إنه في كلية ايتون ، ولا يدري أحد ماذا سيفعل حين يبلغ سن الرشد ، إني أعتقد على كل حال انه سيعيد فتح أبواب القصر

وهنا نهض المستر ساترويت وقال :

– هلم إلى غرفة التدخين ، فإن لدي مجموعة من الصور الفوتوغرافيـة لقصر شارنلي وأحب أن أطلعكم عليها .

وكان من بين هوايات ساترويت هواية تصوير منازل وقصور أصدقائه من الداخل .

وقد الف في هذا الموضوع كتاباً أسماه « بيوت أصدقائي » ، وقد ابتهج أصدقاؤه بهذا الكتاب وراحوا يتفاخرون باقتنائه .

وقال وهو يسلم بريستو إحدى الصور :

– هذه صورة الشرفة الكبيرة ، وقد التقطتها في العام الماضي من نفس الزاوية التي رسمت منها صورتك ، أرى هذه السجادة الصغيرة في جانب من الشرفة ، إنهـا سجادة رائعة ، كنت اتمنى لو استطعت أن التقطها بفيلم ملون .

فقال بريستو :

– انني اتذكرها ، إنها رائعة اللون حقاً ، كأنها قطعة من النـــار المتوهجة ، ولكني ألاحظ أن وضعها على أرضية هذه الشرفة الواسعة لا يتلاءم مع الذوق السليم ، لأنها صغيرة جداً بالنسبـة لاتساع الشرفة ، حتى بدت كأنهـــا بقعة ضخمة من الدماء على الأرضية ذات اللونين الأبيض والأسود .

بل لقد خيل إليّ .. أن وضع هذه السجادة النـــارية في ذلك المكان يوحي بقسوة المأساة التي حدثت في « قاعة السنديان » .. المؤدية اليها .

وقال الكولونيل :

- قاعة السنديان ! آه ، نعم .. إنها القـاعة المسكونة بالشبح ، ويقال أن بين الواح جدرانها لوحاً بالقرب من المدفـأة يخفي وراءه مخبأ سرياً . كما يقال أن شارل الأول لجـأ إلى هذا المخبأ السري ذات مرة ..

ويقولون ايضاً إن اثنين ماتا فيهـا أثناء المبارزة بالمسدسات ، نعم إن ريجي شارنلي انتحر في هذه القاعة نفسها .

ثم تناول الصورة من يد بريستو ..

واردف قائلا وهو يتأملها :

– عجباً .. إنها السجادة الفارسية الحمراء الرائعة التي قيل انهـــا تساوي اكثر من ثلاثة آلاف جنيه .

وعندما كنت هناك ، قبيل الحفلة ، لاحظت أنها كانت موجودة في

قاعة السنديان ، وهي فعلاً مناسبة لهذه القاعة ، ولا أدري من نقلهـا من القاعة إلى هذه الشرفة الواسعة ذات الأرض الرخامية !

ونظر المستر ساتررويت إلى المقعد الخـالي الذي كان قد وضعه إلى جانب مقعده ..

ثم قال في شرود ذهن :

– نعم ، من نقلها ومتى ؟

فقال الكولونيل :

– أعتقد أنها نقلت من الغرفة إلى الشرفة في نفس يوم المأساة ، لأني أتذكر أن شارنلي حدثني عنها وهي لا تزال في الغرفة ، وقال إنـه يفكر في الاحتفاظ بها داخل خزانة زجاجية جيدة التهوية .

وقال ساتررويت :

– لقد أغلقت أبواب القصر بعد المأساة مباشرة ، وقد بقي كل شيء في مكانه منذ ذلك الحين .

وفجأة قال بريستو متسائلاً :

– لماذا اطلق اللورد شارنلي الرصاص على نفسـه ؟

فتململ الكولونيل مونكتون في مقعده وقال :

– لا احد يعرف السبب .

وهنا قال المستر ساتررويت :

– انني اظن ان الأمر انتحار !

فنظر الكولونيل اليه مندهشاً وقال :

– تظنه انتحاراً ؟ عجباً ! إنه انتحار طبعاً يا عزيزي ، فقد كنت موجوداً في القصر عندما وقعت المأساة .

ونظر ساترويت إلى المقعد الخالي وابتسم لنفسه كأنما يضحك من فكاهة خاصة لا يعرفها احد .

ثم قال :

– إن الانسان أحياناً يرى بوضوح بعض الجوانب التي كانت غامضة إذا مرت عليها اعوام كثيرة .

فقال الكولونيل معترضاً :

– هراء ! هراء تام .. كيف يستطيع الانسان أن يرى بوضوح أشياء كانت غامضة بعد مرور أعوام كثيرة ؟

وأيد بريستر رأي ساترويت بقوله :

– إنني أدرك ما تعنيه ، ويمكنني القول إنك على حق ، فالمسألة تتعلق بما نسميه التوازن أو حسن التقدير إذا شئت ، او التناسب والنسبية وما إلى هذا .

فقال الكولونيل ، وهو يتلفت حوله بعنف :

– إذا سألتني عن رأيي ، فأنا لا أؤمن بهذه النظريات الغامضة ، ولا بما يقال عن تحضير الأرواح او ظهور الأشباح .. والمهم أن ما حدث كان انتحاراً . لقد شاهدت الحادث بنفسي على وجه التقريب ..

فقال ساترويت :

– حدثنا به إذاً حتى نراه بعينيك .

فغمغم الكولونيل بكلمات غامضة ، ثم اعتدل في مقعده وابتـدأ الحديث قائلا :

- كان الحادث كله شاذاً غير متوقع ، فقد كان شارنلي في حالته العادية ، وكانت الحفلة تضم عدداً كبير من المدعوين ، ولم يكن أحد يتوقع أبداً أن يمضي اللورد الشاب ويطلق الرصاص على نفسه أثناء توافد المدعوين على القصر .

فقال ساترويت :

- كان من حسن الذوق على الأقل أن ينتظر انصراف المدعوين من الحفلة ثم ينتحر إذا اراد !

- طبعاً ! إن من فساد الذوق أن يفعل انسان شيئاً كهذا أياً كانت الظروف .

- ولم يكن اللورد معروفاً بفساد الذوق ؟

- نعم ، بل على النقيض ، كان رجلا سليم الذوق مهذب السلوك إلى ابعد حد .

- ومع ذلك فأنت لا تزال مصراً على أن الحادث انتحار ؟

فقال الكولونيل :

- طبعاً ، طبعاً ! لقد كنا ثلاثة او أربعة على رأس السلم داخل القصر . أنا ، والآنسة استراندر ، والجي دارمي ، وواحد أو اثنـان آخران .. واجتاز شارنلي الردهة الواقعة تحتنا في طريقه إلى « قـاعة السنديان » .

وتقول الآنسة استراندر أن وجهه كان شاحباً مكتئباً ، وان اليأس

كان يطل من عينيه ، ولكن هـذا كله لغو فارغ ، لأنـه لم يكن في مقدور احدنا ان يرى وجهه من مكاننا المرتفع ..

وكل ما في الأمر انه كان يسير حقاً محني القامة ، كأنما يحمل على عاتقه هموم الدنيا ..

ونادت عليه فتاة من المدعوات ، وكانت وصيفـة سيدة من سيدات المجتمع ، وكانت الليدي شارنلي قد دعتها مع سيدتها بدافع من العطف ، وكانت هذه الفتاة تبحث عنه لتبلغه رساله شفوية ، فلمـا رأته في الطريق إلى « قاعة السنديان » نادت عليه قائلة : « لورد شارنلي .. إن الليدي شارنلي تريد أن تعرف . »

ولكنه لم يحفل بها ، ودخل الغرفة ، وصفق الباب وراءه ، وسمعنـا صرير المفتاح وهو يغلق الباب على نفسه من الداخل ، ثم إذا نحن ، بعد لحظة ، نسمع دوي الطلقة النارية .

واندفعنا إلى الردهة ، وكان ثمة باب آخر « لقاعة السنديان » يؤدي إلى الشرفة الكبيرة ، ولكننا وجدنا هـذا الباب مغلقاً ايضاً من الداخل فاضطرنا إلى تحطيمه .. وهنـاك ، على ارضية القاعة ، وجدنا اللورد جثة هامدة والمسدس بالقرب من يده اليمنى ، فكيف يمكن أن يكون الحادث شيئا غير الانتحار ؟ إن هناك احتمالاً آخر فقط ، وهو جريمـة القتل ! ولكن هل هناك جريمة قتل بغير قاتل ؟

فقال ساترثويت :

– ربما هرب القاتل ؟

– هـذا هو المستحيل .. لأن قاعة السنديان ليس لها غير بابين فقط .

باب يؤدي إلى الردهة ، وهو الذي دخل منه اللورد وأغلقه من الداخل على مسمع منا. وباب يؤدي إلى الشرفة الكبيرة ، وقد وجدناه مغلقا أيضا من الداخل بالرتاج والمفتاح .

– والنافذة ؟

– كانت مغلقة تماما من الداخل ايضا .

وبعد برهة من الصمت قال الكولونيل :

– هذه هي المسألة كلها !

فقال ساترويت :

– إنها كذلك كما تبدو للجميع ، ولكن ..

وعاد الكولونيل يقول :

– وبمناسبة الحديث عن الأشباح ، يمكنني ان اقول إن الشائعات تدور حول قاعة السنديان هذه ، ويقال إنها مسكونة بالأشباح ، وإن على جدرانها الخشبية كثيراً من الثقوب الناشئة من رصاص المبارزات ، وان كثيراً من المتبارزين ماتوا فيها ، وان دماء بعضهم تأبى أن تزول من الأرضية رغم تغيير الأخشاب بغيرها ، ولا ريب أن هناك الآن بقعة دماء أخرى ، هي دماء المسكين شارنلي .

فقال المستر ساترويت :

– هل نزفت منه دماء كثيرة ؟

– لا .. قليلة وقد عجب الطبيب لهذا !

– وأين اطلق الرصاص على نفسه ؟ على رأسه ؟

– لا . بل على قلبه .

فقال بريستو :

– ليست هذه هي الطريقة السهلة للانتحار ، فإن اطلاق الرصاص على القلب يسبب آلاماً قوية ، وقد تجعل المنتحر يتعذب قبل أن يلفظ أنفاسه ، وذلك بعكس اطلاق الرصاص على الرأس الذي يؤدي إلى الموت في الحال ..

وقال ساتوريت :

– بمناسبة ما يقال عن أشباح القصر ، هل رأيت يا كولونيل ما يؤيد هذه الشائعات ؟

فأجاب بلهجة تأكيد :

– لا .. ولكنني أظن أن جميع خدم القصر يؤكدون أنهم رأوا شبح السيدة ذات الوعاء الفضي !

ثم أردف قائلا :

– وأنا أرجو الآن يا ساتوريت أن تكون قد تأكدت أن الأمر انتحار .

– نعم ، نعم .. ولكن هذا لا يمنع الانسان من التفكير في شذوذ هذا التصرف . فلماذا مثلا ينتحر شاب موفور الثراء ، رفيع المقام . حديث العهد بالزواج ، في نفس الليلة التي يحتفل فيها بعودته مع عروسه إلى قصره بعد شهر العسل ؟

وقطب جبينه وأردف قائلا :

– ولكنه مع هذا مات أو انتحر ، وتلك هي الحقيقة التي لا مفر من الاعتراف بها .

وقال الكولونيل :

– لقد ترددت شائعات كثيرة ، كل أنواع الشائعات طبعاً

– ولكن الحقيقة لم يعرفها أحد بعد !

– نعم ..

– وأعجب من هذا أن أحداً لم يستفد من وقوع هذا الحادث .

– نعم .. فيما عدا الجنين الذي كانت تحمله العروس وهي لا تدري .

ثم ارسل ضحكة تهكمية وأردف قائلا :

– والواقع أن مولد هذا الطفل جاء ضربة قاضية لآمال المسكين هيجو شارنلي ، أخ اللورد المتوفى فبمجرد أن ثبت أن عروس اللورد حامل ، راح ينتظر ثمانية شهور ليرى هل سيأتي المولود ذكراً أم انثى .. فلو إنه جاء أنثى لورث هيجو لقب أخيه وثروته كلها .. ولكن شاء القدر أن يأتي المولود ذكراً ، وأن تضيع آمال هيجو ومن معه .

– وماذا كان موقف الأرملة الشابة ؟

– يا للمسكينة ! إنني لم أنس منظرها ، إنها لم تبك أو تنهار ، وإنما بدت كأنها تجمدت وأصبحت كتمثال بلا روح وقد أغلقت أبواب القصر بعد المأساة ، كما عرف الجميع ، واكبر الظن أنها لن تعود للحياة في جوانبه يوماً !

وابتسم بريستو قائلا :

– لا ريب أن وراء هذه المأساة امرأة في حياة اللورد ، أو رجلا في حياة أرملته .

فقال ساترويت :

- هذا ما يبدو !

وقال الكولونيل :

- ولكن المرجح جداً أنها امرأة في حياة اللورد ، لأن الأرملة لم تتزوج بعده .

وهنا قال بريستو بحماس :

- أيا كان الأمر ، فإني أكره النساء بوجه عام ، انهن السبب في مأساة من هذا النوع ، وأعترف أني لم التق في حياتي بامرأة أثارت خيالي وأسرت عواطفي إلا امرأة واحدة ، وقد التقيت بها مصادفة في القطار أثناء عودتي من رحلة في شمال انجلترا .

فقال ساترويت :

- نعم ، نعم .. إن اكثر قصص الغرام بدأت بمثل هذا اللقاء في القطارات .

- جلسنا في مقصورة واحدة بمفردنا ، وبدأنا نتحدث معاً منذ اللحظة الأولى ، واعتقد أن شيئاً من العواطف المتبادلة ربطت بيننا منذ اللحظة الأولى أيضاً ، وأنا لا أعرف اسمها ، بل لا أظن اني سألتقي بها مرة أخرى ، وأعتقد أن الشيء الذي أثار عواطفي نحوها ، هو ذلك الطابع الروحي العجيب الذي كان يغلفها ، فقد بدت لي كأنها امرأة خرجت من صفحات احدى الأساطير .

وأومأ ساتروويت برأسه وهو يدرك ان فناناً مثل بريستو لا بد أن يتأثر بامرأة من هذا النوع ، اما بريستو ، فقد استطرد قائلاً :

- ويبدو لي ان السر في هذه الروحانية التي تميزت بها أنها اصيبت

في مستهل شبابها بصدمة رهيبة جعلتها تحاول الفرار من دنيا الواقع إلى عالم الخيال .

– وهل ذكرت لك شيئاً من مأساتها ؟

– لا .. ولكنني استنتجت هذا . فإن على الانسان ان يلجـــأ إلى الاستنتاج احياناً لكي يصل إلى الحقيقة إذا أراد .

فقال ساتروبت ببطء وبلهجة لها دلالتها :

– نعم .. إن على الانسان ان يلجأ إلى الاستنتاج أحياناً .

وفي تلك اللحظة فتح الخادم الباب وقال له .

– إن سيدة تريد مقابلتك يا سيدي لأمر هام ، إنها المس أسباسيا جلـــين .

- ٢ -

نهض ساترويت بسرعة مندهشا ..

لقد كان يعرف من اسباسيا جلين أنها ممثلة مشهورة في الحاء لندن ، وقد اطلق عليها النقاد اسم « السيدة ذات المنديل » لأنها برعت في تمثيل ادوار كثيرة بمنديل واحد ، إذ جعلته مرة غطاء للرأس في دور ريفية ، ومرة « كاب » راهبة ، وثالثة « كاب » ممرضة ، ورابعة « شملة » بائعة لبن وعشرات اخرى من هذه الأدوار .

ولكنه لم يكن يعرفها شخصياً ، فلماذا تريد ان تقابله ؟

ومضى اليها حيث كانت جالسة في غرفة الاستقبال في وضع مثير ينم على شدة اعتدادها بنفسها وقوة ثقتها بجمالها ، وعمق تأثير شخصيتها في الغير . وكانت طويلة خمرية اللون في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، ولكن جمالها المذهل جعلها تبدو اصغر من هذه السن .

قالت له بصوتها الجذاب :

- إنني اعتذر لك عن هذه الزيارة المفاجئة يا مستر ساترويت ، ولولا ان الأمر لا يحتمل التأخير ، لطلبت تحديد موعد من قبل .

ثم اردفت قائلة .

- والواقع انني كنت اريد ان اتعرف بك منذ مدة طويلة ؛ ومن ثم

فإني مبتهجة بهذه الظروف التي دعتني الحضور . والواقع أني إذا أردت شيئاً ، فإني أحب الحصول عليه فوراً ، لأني لا اطيق الانتظار .

فقال ساتروبت :

– أياً كان السبب الذي دفعك إلى الحضور ، فإني سعيد به يا مس جلين ، وإني انتهز هذه الفرصة لأعرب لك عن اعجابي الشديد بمواهبك .

فنظرت اليه باسمة وقالت بعد ان شكرته :

– اما عن سبب حضوري فهو لوحة « وفاة المهرج » . لقد شاهدتهـا اليوم في معرض هاركسار ، ولما اردت شراءها بأي ثمن ، قال لي المدير بأنك سبقتني لشرائها ..

ثم توقفت برهة عن الحديث قبل ان تردف قائلة :

– والواقع إني اريد هذه اللوحة ، وبأي ثمن يا مستر ساتروبت ، وقـــد احضرت معي دفتر الشيكات ، وسوف اترك لك تحديد الثمن الذي تريده .

ونظر ساتروبت برهـة إلى الممثلة وهو يشعر في قرارة نفسه بنفور قوي من اساليبها المكشوفة للحصول على ما تريد . إنها لم تعد في نظره امرأة جميلة او ممثلة قديرة ، وإنما مخلوقة انانية مصممة على ان تظفر بكل ما تهفو اليه ايضاً ، وراح يفكر بسرعة في انسب عذر يقدمه اليها وهو يرفض تحقيق رجائها ، فقال :

– إنني واثق انه لا يوجد الانسان الذي يرفض ان يحقق لك رجاء ، اياً كان يا مس اسباسيا جلين ..

– إذاً فسوف تعطيني اللوحة ؟

فهز ساترويت رأسه وقال بحزن مصطنع :

- يؤسفني القول ان هذا مستحيل ، لأني اشتريت هذه اللوحة لكي اهديها لسيدة .

- أه ، ولكن .. بالتأكيد يمكنك ..

وهنا دق جرس التليفون بعنف ؛ فتناول ساترويت السماع ، وإذا سيدة تقول له

- هل استطيع التحدث مع المستر ساترويت ؟

- نعم يا سيدتي انني هو !

- إنني الليدي شارنلي .. أليس شارنلي ؛ ولست ادري هل تتذكرني يا مستر ساترويت بعد كل هذه السنوات ؟

- اوه كيف يمكن ان انساك يا عزيزتي أليس ؟ اهذا معقول ؟

- شكراً يا مستر ساترويت ؛ والآن اريد ان اتحدث معك بشأن لوحة « وفاة المهرج » التي اشتريتها اليوم من معرض هاركستر . إني في حاجة إلى هذه اللوحة يا مستر ساترويت لأسباب خاصة . فهل اطمع في ان تتنازل لي عنها ؟

ورأى المستر ساترويت انه تلقى نجدة من السماء في الوقت المناسب ؛ وكان يعرف ان اسباسيا جلين تسمع حديثه طبعاً ولكنها لا تسمع حديث الطرف الآخر .. ومن ثم قال مطمئناً :

- يسعدني جداً ان تقبليها كهدية .. ولكنني ارجو فقط ان تأتي إلى منزلي الآن .. فهل اطمع في ان تحققي لي هذا الرجاء ؟

- اوه طبعاً ! إن هذا اقل ما يجب ازاء كرمك .. لسوف آتي فوراً .

ولما وضع السماعة . قالت جلين بغضب :

– اكان هذا الحديث عن اللوحة ؟

– نعم ولسوف تأتي السيدة بعد لحظات قصيرة !

فأشرق وجه الممثلة وقالت فجأة :

– لا ريب انك طلبت حضورها فوراً لتتيح لي فرصة اقنـــاعها بالتنازل لي عنها !

– نعم .. يمكنك ان تقنعيهـــا إذا احببت .. والآن هل تسمحين بالانتقال معي إلى الغرفة الأولى .. فإن لدي بعض الأصدقاء الذين احب ان اقدمك اليهم ؟

وفتح لها باب غرفة التدخين . ثم قال وهو يقدمها :

– المس جلين .. دعيني اقدم لك صديقي القديم الكولونيل مونكتون وصديقي الجديد الفنان المستر بريستو ..

ثم توقف عن الحديث فجأة حين رأى المستر كوين جالساً في المقعد الذي يحتجزه خاليا .. ثم إذا هو يبتسم ويستطرد قائلا :

– وصديقي المستر هارلي .. كوين .

وقال المستر كوين :

– لقد قدمت نفسي لهذين السيدين اثناء غيابك عن الغرفة يا عزيزي .

وكان ساترويت قد لاحظ المس جلين قد شهقت وتراجعت خطوة عندما نطق باسم صديقه المستر كوين ..

ولكنها لم تلبث ان تمالكت نفسها بعد لحظـات .. ثم التفتت إلى الفنان بريستو وقالت له :

– ما الذي جعلك ترسم هذه الصورة بالذات ؟

فهز بريستو كتفيه . ثم قال وهو يختلس النظر إلى المستر كوين :

– إني لا أدري على وجه التحديد .. إنه قصر مثير للخيـال ، كما أن الشائعات كثيرة عن اشباحه وغرفه « المسكونة » وعلى كل حـال اذكر ان صديقاً أوحى إليّ برسم هـذه الصورة بعد أن حدثني بمأساة اللورد شارنلي .

وفي تلك اللحظة ، فتح الخـادم البـاب واعلن عن وصول الليدي شارنلي .

* * *

أسرع ساترويت لاستقبالها ، وكانت قد بلغت الثلاثين من عمرها او اكثر قليلاً ، وقد تـذكرها وهي فتاة في ميعة الصبا ، ممتلئة حيـاة وابتساماً ، وقد اصبحت الآن كالطيف الذي يتحرك في خفة وروحانية مع الاحتفاظ بكل مقومات جمالها .

وقال لها ساترويت :

– شكراً لحضورك يا ليدي ..

ثم سار معها في الغرفة . وبدا عليها انها تعرف الممثلة المس جلين .. فهمت بأن تقدم يدها اليها ، ولكن الممثلة ظلت ثابتة في مكانها .

فقالت الليدي معتذرة :

– اوه .. إني آسفة ، فقد خطر لي أني رأيتك من قبل .

فقال المستر ساترويت :

- ربما على خشبة المسرح .. فهذه هي المس اسباسيا جلين !

وهنا قالت المس جلين بصوت ادهش ساترويت لما فيه من تلوين مسرحي عجيب :

- إني سعيدة جداً بلقائك يا ليدي .

ولما قدم بريستو اليها ، قالت وهي تبتسم :

- لقد التقيت بالمستر بريستو مرة .. في القطار .

وبعد ان عرفها بالمستر كوين الذي قالت عنه انها تذكر أن زوجها الراحل قد ذكر اسمه مرة او مرتين اثناء حديثه مع اصدقائه .

جلس المستر ساترويت وتنحنح ، ثم قال وهو ينظر إلى المستر كوين بين لحظة واخرى :

- إننا الآن نجتمع على غير اتفاق سابق بسبب لوحة « وفاة المهرج » ، وأعتقد أن في مقدورنا الآن ان نعرف الحقائق التي كانت غامضة .

فقال الكولونيل :

- ما هذا يا مستر ساترويت ؟ هل تنوى ان تعقد جلسة روحية ؟

- لا ، ولكن صديقي المستر كوين يعتقد ، وانا اتفق معه .. إننا نستطيع باعادة النظر إلى احداث الماضي ان نعرف الحقائق كما هي ، وليست كما كانت تبدو في حينها .

فقالت الليدي :

- الماضي ؟

– إني اعني مأساة زوجك يا أليس ، واعرف ان هذا الحديث قد يؤلمك ..

– لا .. إنه لا يؤلمني ، ولم يعد ثمة ما يؤلمني الآن !

ونظر ساتروبت برهة إلى الليدي شارتلي وقد بدت في رقة الطيف او الشبح ، ثم قال فجأة .

– إنك يا عزيزتي تذكرينني « بالسيدة ذات الوعـــاء الفضي » .. التي يقال ..

وفجأة ! سقط فنجان القهوة من يد الممثلة اسباسيا جلين على الأرض متحطماً .. بينما استطرد ساتروبت يقول ·

– إننا نقترب .. نقترب جداً ، ولكن من أي شيء . لقد قتل اللورد نفسه ، فلماذا ؟ إن احداً لا يعرف !

فتململت الليدي شارتلي في مقعدها .. ثم إذا بالفنـــان بريستو يقول فجأة :

– إن الليدي شارتلي تعرف السبب .

ونظرت الليدي طويلاً إلى الفنان ، فأومأ لها برأسه كأنما يشجعها على الحديث ..

وأخيراً قالت بهدوء :

– نعم .. إنني اعرف السبب ، وهذا مـــا يجعلني ارفض العودة للاقامة في القصر .

– هل يمكن ان تخبرينا به ؟

– نعم .. لقد عرفت السبب حين عثرت على خطاب بين اوراقه ،

وقد أحرقته .

- وماذا قرأت في الخطاب ؟

- كان خطاباً من فتاة ، فتاة فقيرة كانت تعمل مربية أطفال عند أسرة ميريام . وقد فهمت أنه كان بينها وبينه علاقة حب انتهت بأن حملت منه ، وقد ظلت هذه العلاقة قائمة بينهما حتى اثناء خطبتي له .. وقالت في خطابها انها ستخبرني انا بالحقيقة قبل أن ترفع الأمر إلى القضاء ولهذا اسرع وقتل نفسه .

وهنا قال الكولونيل مونكتون :

- إذاً فقد وضح الأمر وعرف السبب الحقيقي لانتحاره .

وهنا قال ساتروبت :

- ولكننا لم نعرف السبب الذي من اجله رسم المستر بريستو الصورة ، ولكن يمكن أن نستنتج أنه بخياله وروحانيته ، استطاع أن يرمز للمأساة بالجسد الملقى في الشرفة الكبيرة ، وبالروح التي تراقب الجسد من وراء النافذة المطلة عليها .

فقال الكولونيل :

- ولكن الجسد لم يكن في الشرفة وإنما كان في قاعة السنديان كما رأيناه .

- ربما كان الجسد في الشرفة اولاً ، ثم حمله أحدهم إلى قاعة السنديان .

فبدت الدهشة على الكولونيل وقال :

- إذاً كيف رأينا بأعيننا اللورد شارنلي وهو يدخل غرفة السنديان سائراً ؟

- حسناً ؟ هل رأيت وجهه ؟ هل انت واثق انه اللورد شارنلي حقاً ؟

ما المانع من أن يكون الذي دخل غرفة السنديان رجل آخر يرتدي نفس العباءة التي كان يرتديها اللورد في الحفلة التنكرية ؟ وإن ما أكد لكم أنه هو اللورد ، نداء الفتاة عليه لتبليغه رسالة شفوية !

فقال الكولونيل متهكماً :

ـ وإذا كان الذي دخل قاعة السنديان رجل غير اللورد شارنلي ، فأين ذهب او اختفى وقد كانت الغرفة مغلقة الأبواب والنوافـذ من الداخـل ؟

ـ ألم تقل أن بها مخبأ سرياً في الجدار ؟

ثم رفع يده ليمنع الكولونيل من مقاطعته واردف قائلا :

ـ لقد أصبح الأمر واضحاً الآن .. فلنفرض أن شخصاً ما قتـل اللورد شارنلي في الشرفة الكبيرة ، ثم تعاون مع شخص آخر وسحب الجثة إلى قاعة السنديان حيث وضع المسدس بجانب اليد اليمنى ، ولكي يبدو الأمر انتحاراً ، دخل ذلك الشخص إلى قاعة السنديان عن طريق الردهة وهو في عباءة اللورد حتى يظن من يراه أنه اللورد .

وكان قد اتفق مع احدهم لكي تنادي عليه باسم اللورد شارنلي .. حتى تجعل الذين يرونه من أعلى يتأكدون أنه هو فعلا اللورد شارنلي .. وبعد أن دخل واغلق الباب من الداخل بالمفتـاح ، أطلق رصاصة في الجدار .

وبطبيعة الحال لم يلحظ احد الثقب الذي أحدثته بجـانب الثقوب الكثيرة ، بعد ذلك اختبأ في المخبأ السري .. وكان طبيعياً بعد ذلك أن يظن الجميع ان اللورد انتحر ، لأنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الشك في

أي احتمال آخر .

وقال الكولونيل :

-- إني لا زلت اؤمن بأنه انتحر فعلا ، والدليل على ذلك هو الخطاب الذي عثرت عليه الليدي شارنلي في اوراقه بعد ذلك .

فقال ساتوويت :

-- إن هذا الخطاب مدسوس بين اوراقه عن قصد ، وقد كتبته ممثلة صغيرة بارعة ، كانت تأمل يوماً ان تكون هي الليدي شارنلي بعد وفاة اللورد !

- ماذا تعني ؟

- إنني اعني الفتاة التي اشتركت مع القاتل في تدبير الجريمة .. والقاتل ليس غير هيجو ، اخ اللورد ريجي شارنلي .. وكلنا نعرف ان هيجو كان العضو الفاسد في الأسرة ، وكان يأمل أن يرث اللقب والأملاك بعد مقتل اخيه .. وقد اشرك معه في تدبير الجريمة وتنفيذ الخطة عشيقة له !

ثم استدار المستر ساتوويت نحو الليدي شارنلي وقال :

- ما اسم الفتاة التي كتبت ذاك الخطاب ؟

- مونيكا فورد !

وهنا قال ساتوويت الكولونيل :

- هل كانت مونيكا فورد هي التي نادت على اللورد أثناء ذهابه إلى قاعة السنديان يا كولونيل ؟

- نعم . إنني اذكر هذا على وجه اليقين !

ولكن الليدى اعترضت قائلة :

– هذا غير معقول ، لأني التقيت بونيكا فورد ، واطلعتهـــا على الخطاب ، وأكدت لي أن علاقتها بريجي كانت حقيقة ، وليس من المعقول أن تبلغ فتاة مثلها هذه الدرجة من البراعة في التمثيل !

وعندئذ نظر ساترويت إلى الممثلة اسباسيا جلين وقال بهدوء :

– اعتقد أن ذلك كان في مقدورها ، لأنها ولدت ممثلة بطبيعتها .

وقال بريستو :

– ولكن هناك نقطة واحدة لا تزال غامضة ، إذ كيف استطاع القاتل أن يزيل الدماء بسرعة من ارضية الشرفة التي حدثت فيها الجريمة ؟

فابتسم ساترويت وقال :

– إنه لم يكن هناك الوقت الكافي لازالة الدماء طبعـــاً ، ولهذا نقل السجادة من قاعة السنديان ووضعها فوق بقع الدماء في الشرفة ، وهـــذه العملية لا تستغرق اكثر من دقيقة .

– هذا معقول جداً . ولكن كان لا بد من إزالة آثار الدماء بعد ذلك على كل حال .

– طبعاً ، طبعاً . إن شريكة القاتل انتهزت فرصة الاشاعة الدائرة حول شبح السيدة ذات الوعـاء الفضي ، فتسللت ليلاً في ملابس بيضاء وهي تحمل وعاء فضياً من الماء لتزيل آثار الدماء ، وكانت مطمئنة إلى ان الذي قد يراها ، سيفر هارباً منها .

ثم ابتسم ساترويت واردف قائلا للممثلة جلين :

– اعتقد ان هذا هو سبب سقوط فنجان القهوة منك حين ذكرنا شبح

السيدة ذات الرعاء الفضي ، اليس كذلك ؟ وأعتقد انك احسست بالخوف حين رأيت صورة « وفاة المهرج » ، وقد خطر لك ان احداً ما قد رآك مع القاتل اثناء ارتكاب الجريمة .

وهنا صاحت الليدي وهي تحدق النظر في وجه الممثلة :

– انك انت مونيكا فورد اليس كذلك ؟

ووثبت مونيكا فورد – او اسباسيا جلين – ودفعت ساتروبت بعيداً عنها ، ثم وقفت امام المستر كوين ترتعد وتقول :

– كنت أنا على حق إذاً ، حين احسست يومذاك أن هناك من يراقبنا . فقد كنت انت هناك ، ترانا من وراء النـــافذة المطلة على الشرفة . لقد رأيت ما فعلنا ، أنا وهيجو ، ولمـا رفعت وجهي إلى النافـذة خيل إلي اني رأيت لمحة من وجه إنسان يراقبنا ، ثم يختفي . وهذا ما جعلني أعيش في رعب طيلة هذه السنوات ، ولما رأيت الصورة وانت فيها واقف وراء النافذة تعرفت عليك .. ولكن ، ما الذي جعلك تلزم الصمت كل هذه الأعوام ؟

فقال كوين بهدوء :

– ربما لكي يستريح الموتى في قبورهم ؟

وفجأة اندفعت اسباسيا نحو الباب وفتحته ، ثم قالت في تحد :

– افعلوا ما شئتم بي .. فقد أحببت هيجو حب الجنون ، وساعدته على تنفيذ خطته التي لم تصل بنا إلى النتيجة المرجوة .. وقد مات هو محسوراً في النهاية .. أما أنا ، فإني اجيد التمثيل والتنكر ، كما قال ذلك الرجل العجوز ، ولن يستطيع رجال البوليس في العالم ان يقتفوا أثري ،

ولسوف ارحل عن البلاد في خلال اسبوع .. وداعاً !

وصفقت الباب وراءها ، ثم لم يلبث الجميع ان سمعوا باب المنزل الخارجي وهو ينصفق ايضاً .

* * *

هتفت الليدي شارنلي والدموع تنحدر من عينيها :

- يا زوجي العزيز المظلوم .. لقد عشت حياتي كلها وانا احقد عليك بسبب ذلك الخطاب المزيف .. اما الآن ، فأرجو ان تنام في قبرك بسلام . ولسوف اعود إلى القصر واعيد اليه نبضات الحياة من جديد .

ثم نهضت وتقدمت نحو ساتروبت وقبلت وجنتيه وهي تقول :

- شكراً لك يا مستر ساتروبت .. فقد اعدتني إلى الحياة مرة اخرى بعد أن كنت اعيش نصف ميتة .

ثم صافحت الفنان بريستو بحرارة وقالت له وهي تبتسم :

- دعني اهنئك على عبقريتك ، وارجو ان اراك في اقرب فرصة تزورني في قصري ، ولعلك تستطيع أن تستلهم منه لوحات أخرى .

ولما انصرفت ، قال ساتروبت لمستر بريستو :

- ماذا تنتظر ؟

- أنتظر ماذا ؟

- ألم تشعر أنها تبادلك العاطفة ؟

فاضطرب وجه الفنان الشاب ، ثم نهض مرتبكاً وهو يقول :

– أترى هذا حقاً ؟

والتفت ساترويت نحو المستر كوين ليقول له شيئاً ، ولكنه وجد انه قد رحل فجأة ، كما جاء فجأة ..

فهز كتفيه وقال :

– لا ريب انك حدثت المستر كوين بلقـــائك مع هذه السيدة في القطار .. فأوحى لك برسم هذه اللوحة وهو يعرف ما سيترتب عليها من نتائج .. انه لا يهمه الحادث نفسه بعـد ان انتهى ، ولكن يهمـه الأحياء من العشاق .. وأرى انه نجح ايضاً هذه المرة في إعادة الحياة إلى سيدة لا تزال في رونق الشباب .. وإلى بعث خفقات الحب في قلبهـا لفنان شاب .. اسرع يا صديقي والحق بها .. فلن تندم !.

– تمت –


Bibliotheca Alexandrina